Tele: @Arab_Books

ممبو جيارديناي

القمر اللاهب

ترجمة

خالد الجبيلي

طوى
للنشر والإعلام
منشورات الجمل
رواية

ممبو جياردينلي: **القمر اللاهب**، رواية

Arab_Books

ممبو جياردينلي

القمر اللاهب

روايـة

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

طوى للنشر والاعلام

Arab_Books

Mempo Giardinelli: *Luna Caliente*, 1983

ممبو جياردينلي: **القمر اللاهب**، رواية، ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى ٢٠١٣
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة
لـ منشورات الجمل، بيروت – بغداد
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

ولـ طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 00966556687678

© *Al-Kamel Verlag* 2013
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Arab_Books

الفصل الأول

الموت هو أول وأقدم شيء في الوجود، بل يستطيع المرء أن يقول: إنه الحقيقة الوحيدة.

إنه قديم على نحو بشع وجديد باستمرار.

– إلياس كانيتي، «ضمير الكلمات»

١

كان يعرف أن ذلك سيحدث لا محالة؛ لقد عرف أن ذلك سيحدث ما إن وقعت عيناه عليها. فقد مضت سنوات عديدة لم يزر فيها إل تشاكو، وفي خضم كلّ المشاعر اللاهبة التي تثيرها تلك الزيارات، كانت آراسيلي فتاة رائعة، بشعرها الطويل، الأسود، الكثيف، وجدائلها المتغطرسة التي تؤطر وجهها الرقيق الناعم الموديلياني(*) وبعينيها البراقتين، السوداوين البارزتين، غير المباليتين، لكن الماكرتين. كانت تميل إلى النحافة. وكانت تبدو، بساقيها الطويلتين، مزهوة بنفسها ومرتبكة في آن معاً، وكان نهداها الصغيران قد بدآ يتبرعمان تحت بلوزتها البيضاء. رمقها راميرو،

(*) نسبة إلى الرسام والنحات الفرنسي موديلياني.

Arab_Books

وعرف أن مشكلة ما ستحدث: فآراسيلي لا تتجاوز الثالثة عشرة من العمر.

أثناء العشاء، التقت أعينهما مرات عديدة وهو يتحدّث عن السنوات الماضية؛ فقد راح يتحدّث عن فترة دراسته في فرنسا، وعن زواجه، وعن طلاقه، وعن كلّ شيء يفترض أن يتحدث عنه أي شخص سافر كثيراً وعاش في أماكن بعيدة، بعد عودته إلى موطنه بعد ثماني سنوات، ولم يكد يبلغ الثانية والثلاثين من عمره. وأحسّ راميرو بأن تلك الفتاة الشابة لم تحوّل نظرها عنه وأنها كانت ترمقه بوقاحة طوال تلك الأمسية، ابنة طبيب البلدة القديم الذي كان صديق والده، والذي ألحّ عليه لزيارته في بيته الواقع في فونتانا، الذي يبعد حوالى عشرين كيلومتراً عن ريسيستينسيا.

هبط الليل مع آخر أصوات الأزيز المنبعثة من الصراصير الليلية من بعيد، وأصبحت الحرارة رطبة وثقيلة استمرت حتى فترة بعد العشاء، العشاء الذي رافقه النبيذ القرطبي والحلوى الشديدة الحلاوة برائحة نبات السحلب البرّي الذي يعانق شجرة اللاباتشو الهائلة القديمة وراء البيت. لم يكن بوسع راميرو أن يحدد بدقة اللحظة التي اعتراه فيها الخوف في البداية، وخيّل إليه أنها ربما كانت عندما رفع ساقه عن ساقه الأخرى لينهض بعد أن أنهى فنجان القهوة الثاني، عندما لامس كاحله، تحت الطاولة، قدمي آراسيلي الحافيتين الباردتين، وهو أمر قد يكون حدث عرضاً، لكنه لم يكن كذلك.

عندما نهضوا استعداداً للخروج إلى الحديقة لتحاشي الحرارة

Arab_Books

اللاهبة الخانقة، ألقى راميرو نظرة عليها. كانت عيناها مثبّتتين عليه، لم تكن تبدو قلقة، أما هو فكان قلقاً. ساروا وراء الطبيب الثمل، وزوجته كارمن، التي لم تكفّ عن الثرثرة. وباستثناء آراسيلي، أوى الأطفال الآخرون جميعاً إلى الفراش، وألمحت أمّها إلى أنه من الغريب أنها لا تزال مستيقظة حتى تلك الساعة. وعلّق الطبيب قائلاً: «الأطفال يكبرون». وتظاهرت آراسيلي بأنها تنظر بعيداً إلى شيء بجانبها وقد افترت شفتاها عن نصف ابتسامة، فأحسّ راميرو بأنها موجهة إليه.

تجاذبوا أطراف الحديث، وظلوا يتحدثون ويشربون في الحديقة الخلفية حتى منتصف الليل. كان مساء مزعجاً بالنسبة لراميرو لأنه لم يتمكن من كبح نفسه عن النظر إلى آراسيلي، أو إلى تنورتها القصيرة التي بدا أنها ترتفع لتكشف عن ساقيها السمراوين، المكسوتين بزغب خفيف، المشبعتين بأشعة الشمس، واللتين كانتا، في تلك اللحظة، تلمعان تحت ضوء القمر. ولم يتمكن من أن يزيل من رأسه تلك التخيلات المثيرة، التي لم يعرف كيف يمكنه أن يوقفها، التي بدا أنها تريد أن تجد طريقها إلى الحديث الدائر بينهم. لم ترفع آراسيلي عينيها عنه، ولا للحظة واحدة، بإلحاح أثار قلقه.

وخلال توديعهم، ارتطمت يده بالكأس بصورة خرقاء فانسكب النبيذ منها، وسال على تنورة الفتاة. راحت تجفّف تنورتها، ورفعتها قليلاً إلى الأعلى، فكشفت عن ساقيها اللتين ثبّت نظره عليهما، بينما أبدى الطبيب وزوجته، الثملان، تعليقات كانا يهدفان أن تكون جذابة.

Arab_Books

عندما توجّهوا لفتح باب الشرفة والخروج إلى الشارع، أمسك راميرو بذراع آراسيلي. كان يبدو غبياً، مستميتاً، لأن الشيء الوحيد الذي خطر في باله هو أن يسألها:

«هل تبقعت تنورتك؟»

نظر أحدهما إلى الآخر. قطّب حاجبيه، وأدرك أنه كان يرتعش من الإثارة. عقدت آراسيلي ذراعيها تحت نهديها اللذين بدا أنهما يثبان إلى الأمام، وانحنت قليلاً برعشة طفيفة.

«لم تترك بقعة كبيرة»، قالت، من دون أن تخفض عينيها، هاتين العينين اللتين لم تعودا تبدوان لامباليتين في نظر راميرو.

وبعد لحظات، عندما اجتازوا الشارع وصعد إلى سيارته من طراز فورد ٤٧ القديمة التي كان قد استعارها من أحد الأصدقاء، أدرك راميرو أن يديه متعرّقتان، لا بسبب حرارة الليل اللاهبة. ثمّ خطرت في باله الفكرة التي لم يكن يرغب أن تخطر له، ولا لثانية واحدة: فقد ضغط بقدمه على دواسة البنزين بقوة مرات عديدة، حتى تأكّد أن البنزين قد غمر المحرك. ثم توقف عن الضغط بقدمه على الدواسة، وراح يدير المفتاح لتشغيل المحرك، لكن باءت كل محاولاته بالفشل. وغمر المحرّك أكثر، وكرّر العملية بعناد، وبغضب، مرات عديدة، محدثاً ضجيجاً تلاشى مع موت البطارية.

«ألن تشتغل يا راميرو؟» سأل الطبيب من البيت. وقال راميرو لنفسه إن هذا الرجل، السكران الآن، غبي لأنه يسأل عن شيء شديد الوضوح. وبحركة مبالغ فيها، مجفّفاً العرق عن جبينه، ترجّل من السيارة وصفق الباب.

Arab_Books

«لا أعرف ما المشكلة فيها يا دكتور. لقد ماتت البطارية. هل يمكنك أن تساعدني في دفعها؟»

«لا يا بني، ستمكث هنا الليلة. لقد حسم الأمر. يمكننا إصلاحها غداً. بالإضافة إلى ذلك، فقد تأخر الوقت والطقس حار جداً. وقد تتوقّف ثانية في طريقك إلى ريسيستينسي».

ومن دون أن ينتظر جواباً، استدار ومشى باتجاه البيت وطلب من زوجته تهيئة غرفة نوم ابنه الأكبر ، بروليتو، الذي يدرس في كورينتيس، ليقيم راميرو فيها هذه الليلة.

وقال راميرو لنفسه إنه قد يندم على تصرفه الجنوني هذا. وسأل نفسه ماذا هو فاعل. تردّد لحظة، ووقف مسمّراً في الدرب الترابي، لكنه استسلم عندما رأى آراسيلي واقفة عند النافذة في الطابق الثاني، وهي تراقبه.

Arab_Books

٢

أعطوه غرفة في الطابق الثاني أيضاً. اعتذر راميرو عن الدعوة التي وجهها له الطبيب وزوجته لاحتساء المزيد من الشراب، وقال لهما: «طابت ليلتكما»، وأقفل على نفسه باب غرفة النوم، وجلس على حافة السرير، ووضع رأسه بين يديه. كان يتنفّس بصعوبة، وتساءل عما إذا كانت حرارة الصيف القائظة في إل تشاكو هي التي أثارته إلى هذه الدرجة. لكن لا، ليست الحرارة هي السبب، واعترف في قرارة نفسه بأن ذلك جرى لأنه لم يتمكن من نسيان لون بشرة آراسيلي، أو نهديها الصغيرين الصلبين، أو النظر في عينيها التي ربما كانت تشع إغواء أو أنها ربما كانت نظرة غير مبالية، أو أنها كانت هذه وتلك، فلم يكن متأكّداً تماماً.

نعم، كلاهما، قال لنفسه، وأمسك قضيبه الذي استطال وانتعظ بشدة، كأنه على وشك أن يمزق فتحة بنطاله ويقفز خارجه. كان محموماً. وكان فمه جافاً جداً، وأحسّ بصداع شديد.

أحسّ بالرغبة في الذهاب إلى الحمام. كان يريد أن يذهب إلى الحمام ليرى... وعندما فتح باب غرفة النوم، كانت العتمة تغمر الممر. توقّف قليلاً، واستند إلى عضادة الباب حتى تعتاد

Arab_Books

عيناه على العتمة. كان يوجد بابان مغلقان إلى يساره، قال لنفسه لا بد أنها غرفة نوم الطبيب وزوجته، وغرفة نوم الأطفال. وكان هناك باب ثالث موارب، وقد تسلل من الغرفة ضوء باهت منبعث من مصباح ينتصب على طاولة صغيرة بجانب السرير. وعرف أنها الغرفة التي كان قد رأى من نافذتها ملامح آراسيلي، وباب رابع رأى خلفه حوض مغسلة بيضاء. دخل الحمّام ببطء، بينما تسمّرت عيناه على الغرفة المضاءة، لكنه لم يرها.

جلس على مقعد المرحاض ببنطاله، ومشّط شعره إلى الوراء. كان العرق يتفصد منه بغزارة، وظلّ الصداع يؤلمه. راح يبحث عن حبوب أسبيرين في علبة الدواء المثبتة فوق المغسلة. تناول حبتين، ثم غسل يديه ووجهه طويلاً، وفرك عينيه. توقفّ رأسه عن التفكير، لكنه أدرك في الحال أنه لا يشعر بالرغبة في عمل أي شيء. شيء في داخله يخبره أن أمراً ما سيحدث؛ شعوره بالقلق حذّره من أن شيئاً مأساوياً سيحدث. لقد شلّ الخوف والإثارة تفكيره، ولن ينقذه من ذلك إلا أن يتصرّف بشكل تلقائي ومن دون تفكير، لأن القمر في إل تشاكو كان لاهباً في تلك الليلة، والجو مفعم بالرطوبة والحرارة. ولمّا كان الصمت المطبق يخيّم على المكان، كانت الذكرى التي خطرت له عن آراسيلي مثيرة للإحباط، وكان إحساسه بالإثارة خارجاً عن سيطرته.

غادر الحمّام وسار في الممر باتجاه الجانب الآخر، ولم يبعد نظره عن الغرفة. لم يرها، لذلك أغلق باب غرفة النوم التي منحوه إياها. ارتمى على السرير بثيابه كاملة، وحاول أن ينام. فقد مسار

Arab_Books

الزمن؛ بعد قليل فكّ أزرار قميصه؛ وبدأ يتقلّب فوق ملاءة السرير، وغيّر مكانه مليون مرة. لم يتمكن من التوقف عن التفكير فيها، من التوقف عن تخيّلها عارية. لم يعد يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، لكنه أحسّ أن عليه أن يفعل شيئاً. دخّن عدّة سجائر، لم يكمل العديد منها، ثم نهض ونظر إلى ساعته. كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. ماذا أفعل؟ سأل نفسه. يجب أن أنام، لكنه فتح الباب، وأطلّ برأسه ثانية على الممر.

كان الصمت يخيّم على المكان. لم يعد الضوء يتسلل من باب غرفة آراسيلي الموارب. وكان ضوء القمر الغائم يتسلل خافتاً عبر النافذة إلى الممر. شعر بالاهتياج، ولام نفسه على التخيّلات التي تراوده. الأطفال يكبرون، لكن ليس بهذه السرعة. نعم، كانت ترمقه بإعجاب شديد، لكن ربما لم تكن ترمقه لغوايته، فهي صغيرة على عمل ذلك. لا بدّ أنها عذراء، وتفكيره فيها بهذا الشكل المثير غير موجود إلا في خياله، وناجم عن شبقه الفاحش. قال لنفسه لا بد أنها تغطّ في النوم الآن. الحمل الصغير المغري خائف ونائم. اعتراه شعور بالغضب، لكنه أحسّ بشيء من الارتياح في معدته. اجتاز الممر إلى الحمّام ثانية، وقال لنفسه إنه سيعود إلى غرفته مباشرة بعد ذلك وينام. في تلك اللحظة سمع صوت الفتاة تتقلّب في سريرها. استدار نحو الباب الموارب، ونظر إلى داخل الغرفة.

كانت آراسيلي مستلقية على سريرها، مغمضة العينين، باتجاه النافذة والقمر. كانت ترتدي رداء خفيفاً، بدت شبه عارية، ولم يكن يكسو ردفيها الصغيرين إلا كيلوت صغير جداً. كانت الملاءة

Arab_Books

المجعّدة تستر إحدى ساقيها، وتنحسر عن الساق الأخرى، كأن القماش قضيب يسعى لاستكشاف شيئها. بدت له نائمة على زندها الأيسر، وذراعاها ملتفان حول نهديها: تسمّر راميرو في مكانه في الممر، وراح يحدّق فيها، وقد أثاره هذا الجمال الباذخ. راح يتنفّس من فمه الذي ازداد جفافاً، وعلى الفور أحسّ بانتصابه الذي بدا له أنه يستحيل أن يعود كما كان، فراح يستطيل ويكبر شيئاً فشيئاً، وسرت في أرجاء جسمه رعشة.

إن كانت نائمة حقاً، فلا بدّ أنها لم تكن تغطّ في نوم عميق، بل إنها نائمة نوماً خفيفاً، قلقاً يجعلها تستيقظ بسهولة. تحرّكت، فتحرر نهداها الصغيران من ربقة ذراعيها، واستلقت الآن على ظهرها، وجهها إلى الأعلى. ثمّ، استدارت فجأة، ونظرت نحو الباب فرأته، فغطّت نفسها بالملاءة بسرعة، لكن ساقها اليمنى ظلت مكشوفة، تعكس ضوء القمر.

ظلت في هذه الوضعية للحظات، يرمق أحدهما الآخر بصمت. انسلّ راميرو إلى الغرفة، وأغلق الباب وراءه. أسند ظهره إلى الباب، وراح يتنفّس بصعوبة. أدرك أن صدره أخذ يرتفع ويهبط بسرعة وعلى نحو إيقاعي. كان جسمه يرتعش، لكنه ابتسم لها، إمّا ليطمئنها أو لأنه كان في حالة شديدة من التوتر. وكانت هي متوترة أيضاً، ترمقه بصمت. اقترب من السرير ببطء، وجلس على حافته دون أن يرفع عينيه الثاقبتين عنها، كما لو كان يعرف أنه يستطيع السيطرة عليها بهذه الطريقة. مدّ يده وأخذ يداعب فخذها برقة، لا يكاد يلمسها. أحسّ بآراسيلي وهي ترتعش قليلاً، فضغط على يدها، متحسساً لحمها الطري. تحرّك فوق السرير مرة

Arab_Books

أخرى، مقترباً منها، ومحتفظاً بتلك الابتسامة المثيرة للشفقة التي كانت أشبه بتكشيرة، والتي أزالتها الاختلاجة المفاجئة التي جعلت خده الأيسر يرتعش.

«أريد أن ألمسك فقط»، قال هامساً، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، وقد لاحظ جفاف فمه، «إنك جميلة جداً...».

وبدون أن يبعد عينيه عنها، راح يداعب جسدها المتمدد بكلتا يديه، وكانت عيناه تلاحقان مسار الرحلة التي تقوم بها يداه، اللتان تسلّقتا ساقيها وردفيها، والتقتا معاً عند بطنها، ثم ارتفعتا ببطء، برقة وسلاسة فوق جسمها حتى أطبقتا فوق نهديها. كانت ترتجف، خائفة.

نظر راميرو إلى عينيها ثانية، وقال: «إنك جميلة جداً». عندها لاحظ فزعها، خوفها الذي شلّ حركتها. كانت على وشك أن تصرخ: كان فمها فاغراً، وكانت عيناها جاحظتين، كأنهما على وشك أن تخرجا من رأسها.

«لا تقلقي، لا تخافي...»

«أنا....»، نطقت، لاهثة، «سـ....»

ثم غطّى فمها بيده، وكتم صرختها. تعاركا وهو يتوسل إليها بأن لا تصرخ. استلقى فوقها، وضغط عليها بجسمه، ولم يكفّ عن ملامستها، يقبّل عنقها، ويهمس في أذنها أن تهدئ من روعها. وعلى الفور، مع أنه كان خائفاً، لكنه أصبح مسعوراً من شهوته المضطرمة، بدأ يعضّ شفتيها لئلا تصرخ. ودفع لسانه بين أسنان آراسيلي، بينما راحت يده اليمنى تبحث عن عسيلتها تحت كيلوتها، وازداد هياجه استعاراً عندما لامس أجمة عانتها. أخذت

Arab_Books

تهزّ رأسها، باستماتة لتبتعد عن فم راميرو، ولتستعيد أنفاسها. عندها، راح يضربها بجنون وبعنف، مع أنه خيّل إليه أنه لطمها لطمة خفيفة حتى يهدئ من روعها، فراحت تشهق بهدوء وكررت قولها: «سأصرخ، سأصرخ».

لكنها لم تصرخ، وتركها راميرو تتنفّس وتتأوه عندما أنزل كيلوتها، وفكّ أزار بنطاله. وفي تلك اللحظة بالذات، ولجها، فشهقت شهقة عالية كتمها بفمه مرة أخرى. وعندما بدأت آراسيلي تنشج بصوت مرتفع، ضربها بقوة ثانية، وغطّى وجهها بالوسادة وبدأ يقذف، على نحو متقطّع، داخل الفتاة التي راحت تقاومه مثل حيوان صغير، مثل طائر نورس جريح. ورفض راميرو الذي فقد رشده، صوتاً يقول له إنه أصبح حيواناً، فكشف عن وجه الفتاة بضعة سنتيمترات فقط، فأفزعته عيناها المحطّمتان الدامعتان اللتان كانتا تنظران إليه برعب، كما لو كان وحشاً. ثمّ غطّى وجهها ثانية، وعاد يلكمها من فوق الوسادة. كافحت آراسيلي مدة أطول، لم يصعب على راميرو كبحها، وشيئاً فشيئاً بدأت تهدأ، وهو ينظر من النافذة، بقسوة، نظرات خالية من أي عاطفة، من دون أن يفهم لماذا فعل ذلك، وراح يكرّر على نفسه أن القمر لاهب وخانق في تلك الليلة في فونتانا على نحو غير معتاد.

Arab_Books

٣

لم يعرف كيف وصل إلى هناك، لكنه وجد نفسه فجأة إلى جانب سيارة الفورد، وهو لا يزال يتنفّس بصعوبة. فتح الباب وجلس وراء المقود، لكنه كان لا يزال متوتراً للغاية؛ لم يتمكن من قيادة السيارة. كان في غاية الاهتياج. أشعل سيجارة ونظر إلى ساعته، كانت الساعة الثانية وخمساً وعشرين دقيقة.

أخذ نَفَساً عميقاً مرّة أو مرّتين. قال إنه يحتاج إلى شراب قوي: فقد كان عليه أن يرى الخيارات المتاحة له بوضوح؛ كان الخيار الأول شديد الوضوح: الهرب. همدت آراسيلي وتوقفت عن مصارعته، وكأنها غطّت في نوم عميق، لكنه لم يستطع أن يتذكّر شيئاً، ولم يمكث ليتأكد هل ماتت أم لا. إن الشعور بأنه أصبح قاتلاً فجأة أصابه بالفزع.

لكن الهرب ليس الخيار الوحيد. إلى أين يستطيع أن يذهب؟ إلى باراغواي، سأل نفسه. ففي غضون ثلاث ساعات، يستطيع أن يصل إلى الحدود. نعم سيجتاز الحدود إلى باراغواي، وفي اليوم التالي، عندما يزداد هدوءاً، يقرّر ماذا يمكنه أن يفعل. وبوسعه عندئذ أن يتصل ببعض الأصدقاء ويشرح لهم... ماذا؟ ماذا بإمكانه أن يشرح لهم عن تلك الليلة المروّعة، وعن تصرفه

Arab_Books

الشنيع؟ لعل من الأفضل له أن يتوارى عن الأنظار: أن يغيّر اسمه وهويته، وأن يجتاز الحدود إلى باراغواي، ثم يتوجّه إلى بوليفيا، أو أن يذهب إلى البرازيل ويختفي في غابات الأمازون.

أنا مجنون حقاً، قال لنفسه. وماذا لو سلّمت نفسي؟ لا بد أن هذا البديل هو الأشرف والأفضل. وللغرابة فهو البديل الأكثر إنسانية، والأكثر توافقاً وانسجاماً مع شخصيته: أن يواجه القانون. لذلك يمكنه، في هذه اللحظة بالذات، أو يجب عليه أن يذهب ويبحث عن محام يرافقه إلى مركز الشرطة. وكإجراء احترازي، سيضعونه في زنزانة، وسيتمكن من النوم. النوم... كان ذلك كلّ ما كان يريد أن يفعله في تلك اللحظة - لينسى سلوكه الوحشي المستهجن الذي لم يكن يعرف أنه يمكن أن يكون كامناً في داخله، وأحسّ بالتقزز عندما تذكر ذلك.

لكن لا، لن يسلّم نفسه. لن يتقبّل رفض أسرته وأصدقائه ونبذهم له، أولئك الذين رحّبوا به واستقبلوه وأظهروا له كل مشاعر المودة والحب التي كانوا يكنونها له سابقاً، عندما عاد إلى إل تشاكو بثلاثة أيام فقط، بعد ثماني سنوات، وذلك الإعجاب الذي أظهره أهالي البلدة لواحد من أهل بلدتهم سافر وجاب أرجاء الكرة الأرضية. ذلك المحامي الشاب الذي تخرّج من جامعة فرنسية، وحاز على شهادة في القانون الإداري، والذي سيصبح قريباً أستاذاً في جامعة ديل نورديستي. لم يتخيّل أنه يستطيع أن يواجه أمّه عندما تسمع أن ابنها قاتل، فضلاً عن الفضيحة التي ستنتشر في البلدة. لا، لا يمكنه أن يسلّم نفسه إلى الشرطة، لأن ذلك سيكون أمراً لا يطاق.

Arab_Books

إذاً. . . نعم يمكنه أن ينتحر. يمكنه أن يقود سيارة الفورد، تلك السيارة القديمة الضخمة ذات الثماني أسطوانات، التي تحولت إلى تابوت لمّاع ضخم، بزنة طنّين، وتسير بسرعة١٠٠ كيلومتر في الساعة فوق الجسر الذي يعبر نهر بارانا باتجاه كورينتيس. وعند أعلى نقطة، أي بعد كيلومتر واحد من كشك دفع رسوم اجتياز الجسر، ولن يعدو الأمر مجرد انعطافة مفاجئة بالمقود. وبالسرعة التي يقود بها ستخترق السيارة الحاجز الفولاذي وتسقط من على ارتفاع مئة متر في الجزء العميق من النهر. لا توجد إمكانية للنجاة من الموت. . .أليس كذلك؟ وإن بمحض الصدفة. . .؟ لكن لا تكمن المشكلة هنا. ببساطة إنه لا يملك الشجاعة لكي ينتحر، أو إنه لا يريد أن يفعل ذلك. وإذا كان ثمة شيء متأكد منه تماماً، فهو أنه لن يقتل نفسه، على الأقل ليس بإرادته.

حسناً، قال لنفسه، وأشعل سيجارة أخرى، إذاً، فإن الأمر الوحيد الواضح الآن هو أنني يجب أن أهرب. وإذا فعلت ذلك، فلا يوجد بديل أفضل من التوجه إلى باراغواي، لأنهم سيقبضون عليّ في ولاية كورينتيس أو في ميسيونيس أو في أيّ ولاية أخرى غداً، وخاصة بهذه السيارة التي لا يمكن إخفاؤها.

قال إن تحركه التالي يجب أن يكون سريعاً ومقتضباً. يجب أن يعود إلى بيته ويغيّر قميصه، ويجمع كلّ النقود التي يمكنه أن يجمعها، وأوراقه، وزجاجة من الجنّ أو أيّ شراب جيد قوي، وينطلق نحو الطريق السريع. وعندما ينطلق، يملأ السيارة بالبنزين، ولا يتوقّف حتى يصل إلى كلورينداً، حيث سيعبر النهر

Arab_Books

ويتوجّه إلى أسنسيون، حيث يحجز غرفة في أحد الفنادق ويخلد إلى النوم. ينام كما يشاء. وبعدها... بعدها سيبدأ بالتفكير في الأمر.

أدخل المفتاح ليدير المحرك. عندها فقط، تملّكه الخوف، وخال أنه بال في بنطاله، عندما أحس بيد تلامس كتفه.

Arab_Books

٤

«راميرو»، هزّه الرجل قليلاً.

التفت راميرو فرأى الدكتور تينيمبوم يبتسم له من الجانب الآخر من النافذة. كانت عيناه لامعتين، دامعتين، وكان يمتصّ الهواء بين أسنانه الأمامية، محاولاً قضم قطعة من الطعام. كانت تفوح منه رائحة نبيذ أحمر، رائحة عشرات من قناني النبيذ الأحمر.

«دكتور»، قال راميرو وقد لوى وجهه، وهو لا يعرف إن كان يريدها أن تكون ابتسامة، «لقد أخفتني».

«هل لديك سيجارة يا بني؟»

«نعم، طبعاً»، وبسرعة قدّم له علبة السجائر، ثمّ أعطاه القداحة.

«لم أستطع النوم»، قال الطبيب، وسعل بقوة، ثمّ تنحنح، «الحرُّ لا يطاق. هاه... لكني أتسلل خارجاً في كلّ ليلة».

اعترى راميرو شعور باليأس، فعندما يكون السكارى لطيفين، يصبح إزعاجهم مزدوجاً. تساءل أين كان هذا الرجل موجوداً عندما...، حسناً، عندما حدث ذلك. من الواضح أنه لم ير أو يسمع شيئاً. وماذا لو كان ينصب له فخاً؟ في هذه الحالة من

Arab_Books

السكر، ستكون ردة فعل الرجل مختلفة، ولن يطلب منه سيجارة: لكن مهما كان الأمر، فعليه أن يهرب في الحال.

«كنت على وشك أن أغادر».

«هل أصلحت السيارة؟» استند الطبيب إلى النافذة وراح يُكلّمه، نافثاً أنفاسه الكريهة في وجهه. كان يدخّن، مسنداً إحدى قدميه على لوح السيارة.

«نعم، أظن ذلك»، قال بسرعة وأدار المحرّك، «لا بد أن الوقود قد أغرق المحرك».

«خذني في جولة معك. هيا بنا نذهب إلى ريسيستينسي ونحتسي قليلاً من الشراب في لا إستريلا».

«لا، يا دكتور، لا أستطيع لأن...»

«لأن ماذا.... »، قال منزعجاً، وربت بقوة على كتفه، «هل سترفض دعوتي؟»

ابتعد الرجل عن السيارة، وكاد يقع على الأرض، لكنه حافظ على توازنه وتعثر في سيره حول مقدمة السيارة وركب السيارة من الجانب الآخر. شخر وهو يتهاوى على المقعد.

قال: «هيا بنا».

«لا، يا دكتور، لا أستطيع لأنني لن أتمكن من توصيلك لاحقاً. يجب أن أعيد السيارة إلى صديقي خوانسيتو غومولكا».

«إلى الجحيم، أعرف أنها تخص غومولكا».

«لكن يجب عليّ أن أعيدها له».

«لا يهمّ. يمكنك أن تتركني هناك. سأعود سيراً على القدمين أو سأستقل الحافلة، بحقّ الجحيم أريد أن أحتسي كأساً معك.

Arab_Books

كرمى لوالدك. كنت أحبّ والدك كثيراً»، بدا أنه على وشك أن يبكي، «كنت أحبّه كثيراً...».

«أعرف، يا دكتور».

«لا تدعُني دكتور يا بني، نادني بروليو».

«حسناً، لكن...».

«بروليو، قلت لك أن تناديني بروليو...»، وتلاشى صوته في تجشأة. كان الرجل بركة من الكحول.

«انظر يا بروليو، صدقني. لا أستطيع أن آخذك. لديّ أشياء عليّ القيام بها».

«بحقّ الجحيم ما الذي لديك لتفعله في هذه الساعة، هه؟... كم الساعة الآن؟»

«الساعة الثالثة»، قال راميرو وهو ينظر إلى ساعته، فزعاً. يجب أن يصل إلى كلورياندا قبل انبلاج الفجر. فلم يشأ أن يجتاز الحدود في وضح النهار، وكان عليه أن يمرّ ببيته، ليجلب بعض النقود وأوراقه...

«حسنا، شغّل المحرك ولننطلق».

مستسلماً، شغّل راميرو السيارة، وقال لنفسه إنه سيجد طريقة يتخلّص بها من الطبيب في ريسيستينسيا. وفي هذه الأثناء، كان عليه أن يدرس حركاته بعناية حتى لا يضيع المزيد من الوقت.

«إني سعيد برؤيتك، يا بني»، قال الدكتور، داغماً كلماته. أخرج قنينة صغيرة من النبيذ. تساءل راميرو هل كان يحملها بيده، أم أنه كان يضعها في جيبه. سئم لأنه أدرك أنه سيقدم له شراباً

Arab_Books

الآن، وإذا رفض فإنه سيغضب الدكتور. «خراء، كم كنت أحبّ والدك... اشرب».

«لا، شكراً».

«ابن العاهرة، انظر إلى هذا الشخص الذي لا يحتسي الكحول. قلت لك اشرب»، ورمى القنينة في وجهه. انعطفت السيارة بضعة أمتار، لكن راميرو تمكّن من السيطرة عليها.

فقال: «شكراً»، وتناول القنينة.

رفع القنينة إلى شفتيه من دون أن يدخل قطرة إلى فمه. فهو لم يكن في حاجة إلى نبيذ. بالإضافة إلى ذلك، كان من الأفضل له ألا يشرب شيئاً، لأنه سيقود في الليل، وكان يريد أن يظل رأسه صاحياً صافياً حتى يفكّر. وعندما أعاد له القنينة، قرّر أنه من الجيد أن يعرف ماذا كان الطبيب يفعل طوال الليل.

«وأنت يا دكتور، ماذا كنت تفعل؟ فقد ظننت أنك أويت إلى الفراش».

«إني أتسلل خارجاً في كلّ ليلة. إن كارمن امرأة عجوز ساحرة لا تطاق، وقد أصبح النوم معها أسوأ من ابتلاع ملعقة من المخاط».

أضحكته الدعابة التي أطلقها.

«إن تحمّلها أصعب من أن تتغوط في قنينة عطر»، قال مستثاراً، وراح يضحك ويشهق بطريقة غير محتشمة، «الساحرة مهترئة مثل مصاصة الأطفال».

واصل ضحكته. كانت ضحكة بغيضة.

«وإلى أين تذهب؟»

Arab_Books

«من؟»

«أنت، عندما تنسلّ خارجاً».

«أشرب».

«وماذا فعلت هذه الليلة؟»

«أقول لك يا بني إني أشرب. إني أعرف ماذا أقول، أليس كذلك؟ كما قال فيدريكو غارسيا لوركا، الرجال رجال والقمح قمح».

«نعم، لكن أين تشرب؟ لم أسمعك».

«في المطبخ. يتوفر لديّ نبيذ في البيت على الدوام، الكثير من النبيذ. يتوفر كلّ نبيذ العالم من أجل الدكتور برولیو تينيمبوم، الطبيب السريري، الذي يبجّله زملاؤه في كلية الطب في روزاريو»، ومخط في يده، ومسحها على بنطاله، «... الذي انتهى به الأمر في هذه البلدة الحقيرة».

زاد راميرو سرعته عندما وصل إلى الرصيف، وشقت سيارة الفورد طريقها في الليل وهدرت، خارجة عن صمتها، واستجابت السيارة ذات الأسطوانات الثماني جيداً. قال لنفسه إن غومولكا ميكانيكي ممتاز، وإنه سيصل إلى كلورياندا في الوقت المناسب. وتساءل، بعد أن اعتراه القلق فجأة، هل أوراق السيارة صحيحة، لأنه سيجتاز نهر بيرميجو ليصل إلى ولاية فورموسا، حيث يوجد مركز للشرطة العسكرية. مال إلى الجانب، وبحث في صندوق التابلوه، ووجدها. كلّ شيء سيسير على ما يرام، لكنه يجب أن يتخلّص من تينيمبوم.

«وآراسيلي يا بني؟» سأله الطبيب.

Arab_Books

اعترى راميرو شعور بالتوتر، متأهباً. لم يرد، لكنه كان يعرف أن الطبيب يراقبه.

«أليست ابنتي جميلة؟ إنها ستصبح امرأة رائعة».

أحكم راميرو قبضته على المقود وحافظ على صمته العنيد. بدأت أضواء ريسيستينسيا تظهر.

وتابع تينيمبوم كلامه، «وإذا مسّها أحد بسوء فإني سأقتله. كائناً من كان فإني سأقتله».

تذكّر راميرو تشنّجات آراسيلي تحت الوسادة، قوّتها التي خارت في نهاية الأمر، ذلك الإحساس بالنورس الجريح الذي استسلم لضغطه. سرت في جسده رعدة باردة. ومن طرف عينه، رأى الطبيب يحدّق به. أجفل. ماذا لو كان يعرف؟ وماذا لو كان ينصب له فخّاً، وماذا لو أنه أخرج مسدساً الآن بدلاً من أن يخرج قنينة نبيذ؟ أحسّ بالغثيان، واعتراه دوار شديد.

ركن السيارة إلى جانب الطريق. فتح الباب فجأة، ومدّ رأسه ليتقيأ.

«ألست على ما يرام؟»، سأله الطبيب.

«ابن الشرموطة» صاح راميرو، «أليس هذا واضحاً؟»

وظل هكذا فترة من الوقت، مطرق الرأس. استلّ منديلاً من جيب بنطاله، ومسح فمه. لكنه بقي في هذا الوضع، وقال لنفسه إنه خائف أكثر من أيّ شيء، وإنه إذا كان ذلك فخّاً، وإن الطبيب يعرف ما حدث لابنته، فمن الأفضل أن يقتله الآن وفي هذا المكان.

Arab_Books

٥

توقّفت سيارة الدورية وراء سيارة الفورد، سُلِّطَ من سقفها ضوء مبهر مباشرة نحو راميرو والطبيب. أمال تينيمبوم رأسه إلى الوراء، وتناول جرعة كبيرة من النبيذ.

«بحق المسيح، أنزل هذه القنينة والزم الصمت».

«لا تهمني الشرطة».

«لكني أكترث بهم، أيها الخراء الأحمق»، قال راميرو هادراً بصوت مبحوح واطئ، وأخذ القنينة من يده وألقاها على أرضية السيارة، «هل تريدهم أن يطلقوا النار علينا».

«لا تتحركا»، جاءهما صوت محذّراً إياهما من سيارة الدورية. كان صوتاً هادئاً، يكاد يكون ناعماً، لكنه حازم، بنبرة آمرة.

خرج شرطيان من المقعد الخلفي. أخذ راميرو يراقبهما من المرآة الخلفية. فتح ثالث الباب. وبسرعة أحاط الثلاثة سيارة الفورد، وأشهروا أسلحتهم. قال راميرو لنفسه إن اثنين منهم يحملان بنادق من طراز إتاكاس، ولا بد أن الشرطي الموجود في المقدمة، الذي يبدو أنه المسؤول عن الدورية، يحمل مسدساً عادياً من عيار ٤٥.

Arab_Books

«دعوني أرى أيديكما، ولا تأتيا بأي حركة مريبة. إنكما محاصران».

«كلّ شيء على ما يرام أيها الضابط»، قال راميرو بصوت مرتفع، محاولاً أن يبدو هادئاً وواثقاً من نفسه، «هيا».

اقترب الشرطي من نافذته وألقى نظرة إلى داخل السيارة. خيّل إلى راميرو أنّ الشرطيين الآخرين يقفان في الظلّ، موجهين مسدسيهما نحوهما. أما الشرطي الرابع، وهو السائق، فلا بد أنه كان يجري اتصالاً باللاسلكي مع المركز. وقد تظهر في أيّ لحظة دبابة عسكرية. فقد سمع أن الحياة في الأرجنتين تسير هكذا خلال السنتين الماضيتين.

قال الضابط: «قل لي أين هي أوراقك، من دون أن تأتي بحركة».

فقال راميرو: «هويتي موجودة في محفظتي، في جيب بنطالي الخلفي».

انتظر الاثنان الدكتور تينيمبوم حتى يتكلم، لكن بدا أنه كان نائماً.

«هذا هو الدكتور برولیو تينيمبوم، من فونتانا»، أوضح راميرو، «إنه سكران، أيها الضابط. يبدو أنه يغط في النوم».

«انزل من فضلك»، فتح الضابط الباب بيده اليسرى، وهو لا يزال مصوّباً نحوه بيده اليمنى مسدسه من عيار ٤٥ مليمتراً، ثم تابع الضابط: «والآن البث في مكانك ولا تتحرك وارفع يديك».

ثمّ نادى أحد الشرطة الآخرين الذين كرّروا العملية ذاتها مع

Arab_Books

تينيمبوم فراحوا يهزّونه قبل أن يخرج بصمت تام ويقف على مسافة مترين من السيارة، رافعاً يديه.

دقق الضابط في هويتيهما، بينما راح الشرطي الآخر يفتش داخل السيارة، الجانب المخفي من لوحة القيادة، وتحت المقاعد والأرضية، وداخل التابلوه، وفي صندوق السيارة.

أخيراً، سأل الضابط:

«لماذا توقّفت؟»

«لم نكن نشعر، أنا والدكتور تينيمبوم، بأننا على ما يرام. وبالرغم من أنني لم أتناول أي جرعة من الشراب، فقد أصابني دوار وتقيأت»، وأشار إلى القيء بجانب السيارة. «آسف....»

«آسف على ماذا؟»

«على هذا، فقد وطأت بقدمك عليه».

فوجئ الضابط، وحك كعبَيْ حذائه عدة مرات في الأرض. قال راميرو لنفسه إنه في ظروف أخرى، فربما كان قد ابتسم.

«يجب أن تكون أكثر حذراً. ففي هذه الأيام، وفي هذه الساعة، فإن أيّ سلوك مريب يبديه مدنيون يخضع لهذه الإجراءات».

تساءل راميرو ما هو الأمر المريب من وقوف شخص على جانب الطريق السريع ليتقيأ، وأحسّ بالقرف لأنه عومل كما يعامل «المدنيون»؛ لكن البلاد أصبحت تسير هكذا خلال تلك السنوات، منذ الانقلاب الأخير، كما قالوا له. لم ينبس ببنت شفة، وبدا أن قلبه سيقفز خارج صدره. كان الليل يتقدم، وكان القمر لا يزال

Arab_Books

خانقاً، لكن لا بدّ أن جسد آراسيلي الراقد في غرفة نومها أصبح بارداً. اعترته رغبة في البكاء.

«يمكنك الذهاب»، قال الضابط، وطلب من رجاله العودة إلى سيارة الدورية، التي انطلقت بسرعة.

بصمت، استقلا سيارة الفورد، وعندما شغلّها ثانية، أحسّ راميرو بدمعتين تسيلان فوق خدّيه.

Arab_Books

٦

تحدّث الطبيب أولاً، بصوت ناعم، لكنه كان لا يزال يدغم كلماته: «هذه البلاد خراء يا راميرو. كانت بلاداً جميلة، لكنّهم حوّلوها إلى خراء تام».

لم يكن راميرو يعرف هل كان لا يزال ثملاً أم لا. كان صوت الطبيب لاذعاً، لكنه كان أكثر من أيّ شيء حزيناً، حزيناً جداً.

«لقد شوّهوا الفكرة اليونانية»، تابع تينيمبوم كلامه، «إن علم الحساب علم ديمقراطي لأنه يعلّم علاقات المساواة والعدالة، أما علم الهندسة فهو حكم القلة لأنه يبرز أبعاد عدم المساواة. هذا ما قاله فوكو. هل قرأت فوكو؟»

«ليس كثيراً، عندما كنت في الجامعة».

«حسناً لقد قلبوا الفكرة رأساً على عقب، كما تعرف؛ بدأنا نتحول الآن إلى بلد هندسي أكثر فأكثر، وهكذا تسير الأمور الآن».

«أين يمكنني أن أنزلك، يا دكتور؟»

«لن تنزلني في أي مكان».

Arab_Books

كان صوت الطبيب حازماً، بنبرة آمرة. عاد الخوف يعتري راميرو. هل يعرف شيئاً عما حدث لابنته؟ هل كان حقاً فخّاً نصبه لي؟ إلى أين ستنتهي كلّ هذه الأمور؟

استدار غريزياً، وبدلاً من أن يتوجّه إلى وسط المدينة، انعطف متوجهاً إلى منزل أمّه حيث يقيم منذ أن عاد من باريس. قاد السيارة بالسرعة المحددة في المدينة، فلم يكن يرغب في حدوث مواجهة أخرى مع الشرطة، ولم يعد يحتمل وجود الطبيب أيضاً. قال لنفسه إنه سيقرّر ماذا سيفعل به فيما بعد.

عندما وصل إلى البيت، توقف وطلب من تينيمبوم أن ينتظره لحظة، وقبل أن يسمع رده هرع إلى البيت. بسرعة وبصمت، جمع كل ما يحتاج إليه: جواز سفره، عدّة آلاف من البيزوات، و مبلغ ٥٠٠ دولار لم يكن قد حوّلها إلى بيزوات، وبنطالاً وقميصاً وضعهما في حقيبة صغيرة كان قد اشتراها من السوق المركزي. غادر البيت بحذر شديد، كما لو كان غريباً، حتى دون أن يفكّر في توديع أمّه أو أخته الصغرى.

عاد إلى السيارة، توجّه إلى وسط مدينة. كانت الساعة الرابعة وعشرين دقيقة صباحاً، وفي جميع الأحوال سيكون قد أصبح النهار ما إن يصل إلى الحدود. للأسف. لكنّه على الأقل كان يريد أن يصل في وقت مبكّر من الصباح. لا يمكنه أن يضيّع المزيد من الوقت. كان متعباً، ضجراً، نعساً - مشوّشاً مما يمكن أن ينتظره؛ الشيء الذي لا يريد أن يتخيّله.

في سريرته، تكوّنت لديه قناعة تامة بأنه أضحى الآن هارباً، قاتلاً سيبحثون عنه على امتداد الحدود. حتى باراغواي غير آمنة،

Arab_Books

لكن لم تكن هناك طريقة أخرى. إذ عليه أن يجتازها حتى يصل إلى بوليفيا، وإلى بيرو، وإلى الأمازون. إلى الجحيم، قال لنفسه، في الحال.

توقّف فجأة عند ناصية شارع غيميس وجادة نويف دي خوليو.

«حسناً، يا دكتور، هذه هي آخر نقطة يمكنني بلوغها. سأذهب. أين يمكنني أن أنزلك؟»

«وأنت، إلى أين ستذهب؟» قال بصوت أصبح واضحاً. قال راميرو لنفسه إنه خلال الدقائق القليلة التي انتظره فيها ربما نام، أو ربما بال. فهذا الأمر يحدث للسكارى دائماً.

«سأذهب لصيد السمك».

«في هذه الساعة؟»

«انظر، كفّ عن ذلك أيها العجوز. سأذهب إلى الجحيم الذي أريد أن أذهب إليه، وإني ذاهب الآن، هل فهمت؟» لكنه قال لنفسه، غاضباً، فقد كان من الواضح أنه لن يرى برولیو تينيمبوم ثانية. بل على العكس، سيحاول أن يحافظ دائماً على أبعد مسافة بينهما لأنه عندما يجد جسد ابنته بعد ساعات قليلة، فإن هذا الرجل الغاضب سيأتي ويبحث عنه.

«لن تنزلني»، قال الطبيب ببرود.

«ماذا تقترح؟» سأل راميرو بخوف وحذر، لكن بصوت عال وجدّي.

«لنواصل الشراب ونتكلم».

Arab_Books

«اسمع، يبدو أنك تريد أن تفعل شيئاً لا أريده أنا. هيا اخرج».

«لا أظن أنك تريد أن تتركني هكذا، يا ابن القحبة»، كان يتحدث بنبرة لاذعة، ببطء، «هل تظن أنني لم أر كيف كنت تنظر إلى آراسيلي هذه الليلة؟»

Arab_Books

٧

أحسّ بالخوف عندما وجّه له الطبيب هذه التهمة، وبدون تفكير، لكمه بكلّ قوته على ذقنه. لم يكن تينيمبوم يتوقّع هذه اللكمة، فتهاوى إلى الخلف، وارتطم رأسه بالباب، لكنه لم يفقد وعيه. انطلق من فمه صوت يشبه العواء، وأطلق بعض الشتائم، وتهيأ ليرد له اللكمة. لكن هدف راميرو كان أفضل في لكمته الثانية، التي هشمت أنف الطبيب. ثم وجّه لكمة ثالثة بقبضته اليمنى إلى قاعدة عظم فكّه، ففقد الطبيب وعيه.

بعد عشر دقائق كانت سيارة الفورد تنطلق بأقصى سرعتها، ونظراً لعدم وجود عدّاد سرعة في هذا الطراز القديم من السيارات، خيّل إلى راميرو أنه يقود بسرعة ١٣٠ كيلومتراً في الساعة. وليس بإمكان هذه السيارة القديمة، التي يبلغ عمرها ثلاثين سنة تماماً، أن تسير أسرع من ذلك، لكنه أحسّ بأن الأمور تسير على ما يرام. ولمّا كان غومولكا يحرص على إصلاحها وصيانتها باستمرار، فقد كان المحرّك يعمل كأنه محرّك جديد.

لقد ضاع كلّ شيء، إما كلّ شيء، أو لا شيء، قال لنفسه، ويجب أن أنطلق الآن بسرعة لأنني أصبحت داخل اللعبة. لكن لعبة، كلمة بعيدة كل البعد. وعلى الرغم من أنه حاول ألاّ يلعب،

Arab_Books

فقد أقنع نفسه بأنه يلعب بنظافة؛ إذ لم يكسر أي عظمة من عظامه، أو سن من أسنانه. فقد ضربه دون أن يترك أثراً عليه. فوجئ ببرودته. لم يتخيّل قط أن رجلاً، يصبح قاتلاً غصباً عنه، يمكنه أن ينسى فجأة آراءه المسبقة، ويصبح بارداً، مجرداً من المبادئ.

تذكّر تلك الفترة، منذ عدة سنوات، عندما مات والده وهو لا يزال طفلاً، وقرّروا الانتقال من بيتهم لفترة من الزمن، وذهبوا للإقامة مع بعض أقاربهم في كويتيليبي خلال موسم حصاد القطن، وبدا أن ذلك قد صرف انتباه أمّه عن بكائها اليومي. وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع، اضطر للذهاب إلى ريسيستينسيا لإجراء فحص طبي لمرض ما، لا يتذكّر الآن ما هو، مرّ ببيته؛ وانتظره عمّه ريمون في السيارة بينما دخل إلى البيت ليجلب بعضاً من ثياب أمّه، لكنّه لم يغلق باب البيت الأمامي. وكانت قد تسللت عائلة من القطط عبر نافذة غرفة الطعام، واستقرّت تحت الطاولة. وخلال الأسابيع القليلة تلك، استولت على غرفة الطعام والمطبخ، فشعر بقرف وغضب شديدين عندما رأى قطّتين ضخمتين تهربان عندما سمعتاه يدخل إلى البيت. شلّه مشهد القذارة الذي رآه عندما انسلّت أربع هريرات من تحت الطاولة، كأنها تبحث عن مأوى لها في مكان آخر. وببرود، أغلق النافذة المواجهة للفناء، والباب الذي يفضي إلى المطبخ والباب الذي كان قد فتحه بنفسه والمفضي إلى باقي غرف البيت. وعاد إلى السيارة التي كان العمّ ريمون ينتظره فيها، شاعراً بإثارة شديدة من هذا التصرف الانتقامي.

Arab_Books

عندما عادوا إلى ريسيستينسيا بعد قرابة شهر، تملّك الرعب أمّه وكريستينا، أخته الصغرى، عندما رأتا جثث القطط الصغيرة وقد التصق فراؤها بالبلاط. كانت الرائحة الكريهة التي تملأ المكان لا تطاق، وبعد أن أنكر أيّ مسؤولية، ذهب إلى السينما وأمضى فترة بعد الظهر يشاهد فيلم لويس ساندريني.

«بارد، عديم الضمير»، قالت له دورين عندما حدّثها عن هذا الأمر. دورين، الفتاة الحلوة من فينسين التي أحبّها، وتذكّر الآن أنّ دورين لم ترغب في مضاجعته في تلك الليلة. بارد، عديم الضمير، كرّر لنفسه، وهو ينظر إلى تينيمبوم الذي كان يغطّ في النوم في المقعد الخلفي. كان يدرك جيداً ماذا يفعل، وكان يعرف أنه كان عملاً شنيعاً. لكن لم يكن لديه خيار آخر. لقد ضاع كلّ شيء... إما كلّ شيء، أو لا شيء... نعم، لقد دخل اللعبة، ولن يوقفه الآن شيء.

لم يكن في نيته أن يقتل آراسيلي: يا إلهي، لا، بل كان يريد أن يحبّها، لكنها... حسناً، قاومته، نعم، حقاً لم يكن عليه أن... حسناً، من الأفضل أن لا أفكّر في الأمر. لقد ضاع كلّ شيء، كان طيباً وضاجعها، أغلى مضاجعة في حياته، قال لنفسه. النكتة التي قالها جعلته يشعر بالاشمئزاز. أنا وحش، فجأة أصبحت وحشاً. السبب هو القمر. فقد كان القمر في إل تشاكو خانقاً جداً، لاسيما بعد غياب طال ثماني سنوات. لقد ضاع كلّ شيء. لقد أصبح داخل اللعبة.

بعد أن اجتاز التقاطع في الطرف الغربي من ريسيستينسيا، عبرَ الجسر المشيد فوق نهر نيغرو واجتاز المنعطف إلى الطريق ١٦.

Arab_Books

وبعد مسافة غير بعيدة، وصل إلى جدول ماء لا توجد عليه لافتة. توقف على جانب الطريق قبل الجسر الصغير بمئتي متر. ضغط على الفرامل، محاولاً ألاّ يترك آثاراً للعجلات على الرصيف، وقال لنفسه إن عليه أن ينطلق بسرعة كبيرة، كما خطّط عندما بدأ تينيمبوم يتصرّف مثل حشرة فما كان عليه إلا أن ضربه. لن يذهب إلى باراغواي أو إلى أي مكان آخر غير وطنه.

تضرع إلى الله ألاّ تمرّ سيارات أخرى، على الرغم من أنه من النادر أن لا توجد حركة مرور في تلك الساعة، الخامسة صباحاً. كان الطريق خاوياً ومقفراً تماماً. كان قد اجتاز سيارتين فقط، سيارة قادمة من الشمال، وحافلة تابعة لشركة غودوي للحافلات تسافر بين ريسيستينسيا وفورموسا. خرج من السيارة وراح يدفع جسد تينيمبوم حتى أصبح وراء المقود. تردّد برهة، ولم يعرف هل عليه أن يمسح بصمات أصابعه، لكنه أبعد هذه الفكرة من رأسه. بدا من الواضح أنه كان يقود السيارة. لم يكن ذلك الأمر مهماً. لكنّه وضع يدَي الطبيب على المقود وفوق ذراع نقل السرعة. لا بد أن الجميع سيظنون أن تينيمبوم كان سكراناً، وأنه أقدم على عمل جنوني، وسيخيّل إليهم أنّه هو الذي اغتصب ابنته، وأنه بعد أن تملّكه اليأس، انتحر في هذه البقعة السخيفة، فوق هذا الجسر، الذي قرر راميرو أن يلقي سيارة الفورد القديمة من عليه.

بطبيعة الحال، لا بد أنه سيواجه أموراً مزعجة لاحقاً، لكنّه سيفكّر بطريقة تمكّنه من التغلب عليها. فقد أصبحت لديه الآن قناعة بأنه قادر على عمل أشياء أكثر مما كان يتصوّر. فالرجل

Arab_Books

الذي يُدفع إلى أقصى حدوده يمكنه أن يفعل أيّ شيء، وقد وصل إلى هذا الحدّ. فقد أصبح الطبيب حشرة مزعجة، ولعله كان ينصب له فخّاً. لم يكن أمامه خيار، لذلك اضطر إلى ضربه حتى أفقده وعيه، وكان عليه أن يقتله الآن. لقد فقد كلّ شيء... بالإضافة إلى ذلك، أصبح يعرف الآن ما يجب عليه قوله: إن تينيمبوم، الغارق في سكره، أيقظه... في أي ساعة؟ نعم، فقد جاء إليه في الساعة الثالثة، عندما كان يدخّن في السيارة. حسناً، إذن أيقظه في الساعة الثالثة إلا ربعاً، ولم يستطع، هو راميرو، أن يرفض الدعوة. وسيقول إن الطبيب كان مضيفي، وقد عاملني بسخاء، ودعاني إلى عشاء رائع بعد سنوات عديدة لأنه كان صديقاً لأبي... وسيوضح أنه هو الذي قاد السيارة لأن الطبيب كان ثملاً وفي حالة شديدة من التوتر، كما لو كان شيئاً قد حدث للتو. لكن لم تكن توجد وسيلة لأعرف ما هي. ظننت أنه كان سكراناً لأنه كان حزيناً. من يستطيع أن يعرف أنه هو الذي اغتصب ابنته، لذلك ذهبنا إلى «لا إستريلا» لنحتسي كأساً. وسيقول إن سيارة دورية قد أوقفتنا، وابتسم وهو يحرك جسد الطبيب، وتذكّر كم كان ذلك اللقاء مفيداً. وسيعترف أفراد الدورية ويقولون نعم، اقتربوا منهما، وسيؤكّدون الساعة التي حدث فيها ذلك. وسيؤكّدون أيضاً أن الطبيب كان سكراناً، وأن راميرو كان صاحياً.

ثمّ وضع كيس النايلون الصغير في قميصه، وجلس فوق جسم الطبيب وشغّل السيارة، ثم ضغط دواسة البنزين، وغيّر قضيب السرعة بسرعة. ثم توجّه نحو الجسر، وقبل أن يبلغه ببضعة أمتار، وبرعب أطلق صرخة مخيفة لم يميّزها هو نفسه،

Arab_Books

وقفز من السيارة قبل لحظة من اصطدامها بالسور، وسُمع ضجيج مروّع من ارتطام الفولاذ بالإسمنت. وبدا أن السيارة قد ارتفعت فوق حافة الجسر، ثم مالت إلى اليسار، وسقطت من فوق الحاجز على حافة النهر.

تدحرج راميرو على الأرض وتوقّف عند كثيب نمل ضخم. نهض بسرعة قبل أن يهاجم النمل جسمه الغريب. استوى واقفاً، وأحسّ بألم في مرفقه، وجرى ليرى السيارة التي غمر الماء نصفها. هدّأ من روعه عندما أدرك أنه على الرغم من أنه لم يكن السبب في إشعال النار كما كان يريد، سقطت سيارة الفورد وعجلاتها متجهة إلى الأعلى. كان هيكل السيارة قد أصبح تحت الماء، ولا بد أن الطبيب سيغرق. وقال لنفسه إن كلّ شيء يسير على ما يرام، وسرت في جسده رعشة عندما أدرك هذه الحقيقة، الهدوء البغيض الذي غلّف تعليقه هذا.

Arab_Books

٨

لم تبزغ الشمس على الرغم من أن الساعة قد بلغت الخامسة والثلث صباحاً. كانت قد مضت خمس عشرة دقيقة على ابتعاده عن الجسر وقد أطلق ساقيه للريح، متّجهاً جنوباً، عائداً إلى المدينة. اجتازته سيارتان وشاحنة - ابتعد راميرو عن الطريق عندما سمع هدير محركات، واختبأ وراء الشجيرات - وهذا يعني أن أحداً لم يتوقّف على الجسر الصغير المحطم. فلم تكن الجسور والطرق التي هي في حالة سيئة تفاجئ أحداً، لذلك سيمضي وقت قبل أن يكتشف أحد سيارة الفورد نصف المغمورة في الماء.

وعندما رأى أنه قطع مسافة كافية، تهيأ ليوقف سيارة حتى تنقله، بينما واصل السير. كان هادئاً الآن، مع أن الإعياء كان قد بدأ يعيق تقدّمه.

بعد مرور دقيقة، رآه سائق شاحنة بيدفورد ضخمة تحمل لوحة «سانتا فو» فتوقّف.

«ما هي وجهتك؟» سأله السائق من مكانه وراء المقود. كان رجلاً داكن البشرة، عارياً من الخصر حتى الجزء الأعلى من جسمه. وكانت ذراعه تتدلى من النافذة، فبدت مثل رافعة ميناء،

Arab_Books

وقد رسم على عضلة ذراعه وشم لم يتمكن من تبيّنه جيداً في الظلام. قال راميرو لنفسه إن رجلاً كهذا قد يكون فظاً ووقحاً تجاه أي شخص وهو لا يخشى أحداً.

«إلى أي مكان يناسبك يا صديقي»، أجابه راميرو، بلهجة سكان باراغواي من دون أن ينظر إليه.

«سأذهب إلى ريسيستينسيا لإفراغ حمولتي، ثم سأواصل طريقي إلى كورينتيس».

«حسناً سأنزل هناك، في وسط المدينة».

«حسناً، اصعد».

ما إن صعد إلى الشاحنة، ونظر من النافذة، حتى قال عَرَضاً بلهجة باراغواية واضحة بأن سيارته تعطلت على جانب الطريق على مسافة بضعة كيلومترات إلى الوراء، وكان على وشك أن يضيف بأنّه قرّر أن يسير حتى تتوقف له سيارة وتنقله ليبحث عن ميكانيكي، ثم يواصل طريقه إلى سانتا فو. لكنّه أدرك أنه على الرغم من أنّ سائق الشاحنة رجل انطوائي وغير اجتماعي، فهو كذلك من ذلك النوع من الأشخاص القادرين على القيام بعمل جيد. وكان كلّ ما فعله هو أن هزّ رأسه، مشيراً إلى أنه لا يكترث بمشاكل الآخرين. بل يريد أن يفكّر في أموره الخاصة، ولا يهتمّ بسماع القصص التي قد يحكيها له آخرون. كان راميرو ممتناً كثيراً، واستقر في مقعده.

وبسرعة تذكّر كلّ ما حدث له في تلك الليلة، وسأل نفسه هل كان ذلك حلماً، أم شيئاً حدث لشخص آخر. فتح عينيه مجفلاً، لا، فقد كان ما يراه هو الريف المنبسط في شمال إل تشاكو،

Arab_Books

وأشجار النخيل التي تظهر خيالاتها في عتمة الليل باتّجاه نهر بارانا، وغابته الوسخة التي تميل إلى اللون الرمادي على جانبي الطريق، وحرارة لاهبة لا تطاق لا يمكنك أن تلمسها.

راح يراقب خلسة سائق الشاحنة، الذي كان يركّز على القيادة، ويمضغ نكاشة أسنان، ويحدّق في الطريق أمامه. لا، ليس حلماً. أغمض عينيه ثانية، واسترخى لبضع دقائق، وراح ينصت إلى خرخرة محرّك الديزل.

عندما توقّفت الشاحنة عند إشارة المرور على ناصية جادة أفالوس و٢٥ جادة دي مايو، قال راميرو بلهجته الباراغواية ثانية: «شكراً، يا معلّم، سأنزل هنا»، وفتح الباب ووثب خارج الشاحنة، محاولاً إخفاء وجهه عن سائق الشاحنة، الذي أطلق زفرة، وقال شيئاً: «تشاو، أيها الباراغوايي»، وهو تعليق أبهج راميرو. لم يكن عليه أن يقلق منه. كان محظوظاً.

لكنّه نظر إلى ساعته وأجفل: كانت الساعة تقترب من السادسة وعشر دقائق، وبدأ ضوء النهار. كان عليه أن يمشي حوالى ثمانية شوارع ليصل إلى بيته. كان الخطر هو أن أسرته قد تسمعه وهو يدخل.

عندما وصل إلى البيت، فتح الباب بحذر شديد، بعد أن ألقى نظرة بإمعان على الشارع ليتأكد من أنّ أحداً لا يراقبه من نافذة بيته أو وهو يغادر بيته. خلع حذاءه عند المدخل. انتصب شعره عندما أدرك ضربات قلبه. اجتاز غرفة الجلوس بصمت تام، ودلف إلى غرفة نومه، وأغلق الباب وراءه. خيّل إليه أنه سمع كريستينا في الغرفة الأخرى تمارس تمارينها الصباحية، ثم ستتوجه إلى المطبخ

Arab_Books

اتصنع قليلاً من القهوة. كانت أمّه في الحمّام، وخلال ثوانٍ سيتم دلّ شيء.

بيقظة وحذر شديدين، خلع ثيابه وغطّ في النوم، متسائلاً أنه لو كان في باريس، هل سيخطر له أن يصبح هو، راميرو بيرناردیز، متوحشاً إلى هذه الدرجة بدم بارد. كان سيقسم بأنه لا يمكن أن يكون كذلك، أما الآن، بعد ليلة كهذه، فقد أصبح يعرف أن أيّ شيء ممكن.

Arab_Books

٩

عندما فتح عينيه، لاحظ أن الشمس تتسلل عبر شقوق الستائر المعدنية. كانت المروحة تصدر طنيناً رتيباً حالماً، وخاصة عندما تدور يساراً، فقد كان يجب أن تدور حول نفسها دورة كاملة على قاعدة المحور حتى تبدأ رحلتها إلى اليمين. لقد لفتت تلك المروحة انتباهه. لا بدّ أن أمّه قد شغّلتها. فوجئ بأنه لم يستيقظ، لكن بالطبع، قال لنفسه، للسيدة العجوز قدمان خفيفتان. فلا يمكن لأحد أن يدخل هكذا إلى غرفة قاتل إلاّ أمّ.

قاتل، كرّرها، محرّكاً شفتيه لكن من دون أن ينبس بكلمة. وفجأة انتابه صداع فحاول أن يسترخي. وبدأ يدرك للتو أن جسده كله كان متشنجاً.

خارج الغرفة، كانت أمّه تتحدّث مع أحد. سمعها تقول: «نعم، يا عزيزتي». بدا أنها مندهشة ومبتهجة. لا بدّ أن هناك زائرة. نظر إلى ساعته: الحادية عشرة وأربع عشرة دقيقة. لم ينم كثيراً. «يا لها من صدفة»، سمع أمّه تقول: «لم نرك هنا قط». وبدا أن صوتها يقترب من غرفة نومه. استعد راميرو بالكامل، واستوى في جلسته.

Arab_Books

«دقيقة يا عزيزتي»، كان الصوت مرتفعاً الآن، «انتظري حتى أذهب لأرى إن كان مستيقظاً».

دفن راميرو رأسه في الوسادة، وأغمض عينيه حالما دخلت غرفة نومه. «راميرو...»

فتح عيناً واحدة، ثمّ الأخرى، متظاهراً بالنعاس الشديد، «عزيزي، آراسيلي تسأل عنك».

«ماذا؟» وثب راميرو، كاد يصيح مذعوراً.

«نعم يا عزيزي، آراسيلي، ابنة الدكتور تينيمبوم من فونتانا، حيث سهرت ليلة البارحة».

Arab_Books

الفصل الثاني

ما هو الضمير؟ لقد اختلقته لنفسي! لماذا يعذبني ضميري؟ بحكم العادة. بحكم العادة المتأصلة في البشر منذ السبعة آلاف سنة الماضية! لذلك لنتخلّ عنه، حتى نصبح آلهة!

فيودور دوستويفسكي، الإخوة كارامازوف

١٠

غير ممكن، ومع ذلك... اللعنة، مرة أخرى لم يكن يحلم. ظلّ في سريره يحدّق في السقف، خائفاً، تعتريه مشاعر متضاربة. اعتراه شعور بالارتياح لأنه عرف أنه قاتل بدرجة أقل، لكنه، في الوقت نفسه، كان غاضباً من كلّ شيء حدث كان من الممكن ألاّ يحدث لو كان يعلم... لكن ما هو هذا الشعور الذي انتابه بأنه قاتل بدرجة أقل؟ أليس هذا مجرد تبرير سخيف؟

في البداية كان دي كوينسي، قال لنفسه، ثم دوستويفسكي، هما اللذان قالا إن الذين يبدون روحاً من السخرية أو الكسل يستمتعون بالجريمة. ففي مكان ما في داخلنا، نستمتع بالرعب الذي تحدثه جريمة قتل، ونعجب بها. يمكننا أن ندينها في ما

Arab_Books

بعد، ونصبح قضاة متشددين، لكن في البداية، فإن الجريمة تسحرنا، بل تثير إعجابنا.

لا يمكنك أن تكون «قاتلاً بدرجة أقل». وبالطريقة نفسها، فإنك عندما تسلب شخصاً حياته، فإنك تسلب الحياة كلها، لذلك فإن موتاً واحداً سببته يداي، هو كلّ موت.

نظر راميرو إلى يديه وإلى راحتي يديه المتجهتين إلى الأعلى، ثمّ قلّبهما ببطء، ونظر إليهما من الجانب الآخر. كانتا معروقتين يكسوهما شعر كثيف. بدت يداه مثل يَدَيْ وحش في رواية قوطية. لكنّهما ذات اليدين اللتين تعرفان كيف تداعبان دورين منذ عهد قريب. كان يعرف أنّ بإمكانهما أن تكونا رقيقتين، ويمكن أن تثيرهما نعومة بشرة امرأة ورقّتها؛ ويمكنهما لمس زهرة بلطف من دون أن تذبل. وذات مرة قرصتا برقة خدّ طفل، وفي مرة أخرى، داعبتا قماشاً من الكتّان من أواكساكا، وحريراً من الهند، وقاعدة تمثال ديفيد في فلورنسا، وفراء جافاً قاسياً لراعٍ ألماني.

برزت له، شيئاً فشيئاً، هذه اللحظات المحفورة في ذاكرته، لحظات لا يمكن كبحها - لم يفهم ما الذي جعله يتذكّرها الآن. لا، مهما أراد أن يتجاهل الحالة التي هو فيها، فلم تتمكن تلك الذكريات من صرف انتباهه. إن هاتين اليدين هما يدا قاتل، وهو القاتل.

يا إلهي، ماذا سيفعل الآن؟ ماذا تريد مني هذه الفتاة؟ كيف سيتمكن من مواجهتها؟ ماذا سيقول لها؟ ماذا يمكنه أن يقول لها؟

أطلق تنهيدة، وأشعل سيجارة. ألقى عود الثقاب في منفضة السجائر على المنضدة بجانب السرير وقال لنفسه إنه لن يغادر

Arab_Books

الغرفة إلى حين. كان يعرف أنهما تنتظرانه. بالنسبة لي يمكنهما الانتظار طوال حياتهما، قال لنفسه، أما الآن فالشيء الوحيد المتيقن منه هو الشلل الذي أصابني. كانت ليلة البارحة محمومة جداً.

هل من الممكن أن تكون آراسيلي قد قالت شيئاً عما حدث؟ هل عرفت كارمن أنه اغتصبها وحاول أن يقتلها؟ من الواضح أن الفتاة لم تأت وحدها من بيتها في فونتانا. بحقّ الجحيم ماذا يريدون؟

عندها فقط أدرك أنه يكره النساء. «إني أبغض النساء»، قال ضاحكاً. لا، ليس الأمر كذلك تماماً. في باريس، في الأمسيات التي لا تنسى، الأمسيات المرحة والمسلّية، عندما كان يتحدث عن تصرّفات الرجال إزاء النساء، وكانت قد اتهمته عدّة صديقات بأنه متعصّب لذكوريته. وأطلقن عليه اسم «الذكر المتعصب»، وكان يحلو له أن يردّ بأن يطلق عليهن اسم «نسويات صغيرات العقول»، فيضحكن. إنهن لا يعرفن شيئاً عن الحياة. فالنساء يمثّلن الفطرة السليمة التي نفتقر إليها، نحن الرجال، قال معترفاً لنفسه، وهذا ما يخشاه الرجال. أن نريدهن ونحتاجهن ونخافهن. إنهن يزرعن الخوف فينا. ألم يخامره هذا الشعور عندما كان مع آراسيلي ليلة البارحة؟ هو، راميرو بيرناردیز، الرجل القوي، العظيم، الأرجنتيني الذي لم يستطع أن يكسب مودة فتاة فرنسية صغيرة في باريس، قد أصبح، في ليلة واحدة، بدافع من الخوف والرعب، مغتصباً، وقاتلاً مرّتين. لا يهمّ الآن أن تكون آراسيلي قد عادت إلى الحياة أو ما شابه ذلك. الفطرة السليمة... ماذا

Arab_Books

كان ذلك؟ الإحساس الوحيد الذي كان يتملكه هو الخوف. ألم يحدث له ذلك من قبل، مع عدة نساء؟ عليهن اللّعنة، جميعهن. فقد جلبت له جميع النساء اللاتي عرفهن في حياته لحظة من الرعب، لحظة من الذعر، لم يتمكن من حلّها. وربما كان الإحساس «بالرجولة الفائقة» هو الرعب الثاني الذي يعترينا عندما نصبح وجهاً لوجه أمام امرأة. لحظة الرعب التي تجعلنا ندرك إحساسهن السليم، ضعفهن الظاهر (الشيء الذي نريد أن نراه بأنه ضعف)، استقرارهن الفطري الذي نفتقر إليه نحن الرجال. لعل الشيء الذي يجعلنا مختلفين ليس أن لدى البعض قضيباً ولدى البعض الآخر فرجاً فقط، بل إن ما يجعلنا مختلفين هو استحالة قبول الاختلاف والاعتراف به. إذاً هذا ما نرفضه في الجنس الآخر.

ولماذا يخطر له كلّ ذلك الآن؟ لأن الأمر المروّع لم يكن الموت فحسب، بل كذلك الشعور بالخزي بأنه مغتصب؟ لأنه فجأة تعين عليه أن يعترف بأنه لم يجرؤ على مغادرة غرفته، لأنه، بصراحة، أحسّ بأنه يشبه نموذج لومبروسيان؟(*) أو لأنه كان يعرف، في سريرته، بأنه عاجز عن تحقيق أيّ تفوق أخلاقي؟ أم أن الشرف مجرد خرافة، كما اقترح دوستويفسكي؟ ما هو شرف الرجل إن لم يكن الإقرار بتواضعه، بصغره اللامتناهي، بلا حدود؛ ما هو إن لم يكن تدمير النرجسية؟

(*) النظرية التي وضعها عالم الجريمة الإيطالي سيزار لومبروسيان (١٨٣٦-١٩٠٩) والتي تقول إن المجرمين نتاج عوامل وراثية أو أفكار أو مشاعر تعود إلى الماضي البعيد.

Arab_Books

إذا كان الأمر كذلك، فهو لا يملك ذرة شرف، وهو ليس رجلاً محترماً، بل ولا حتى مجرد رجل. لقد انهالت عليه القرون الإنسانية التي حاولت بمشقة عظيمة التمييز بين الخير والشر.

لكنه غادر السرير، وارتدى قميصه وبنطاله، وتوجّه صوب الباب. لكنه أدرك على الفور أنه لا يجرؤ على مغادرة الغرفة. ليس بعد. ثمّ كرر لنفسه التبرير بأنه «أقل من قاتل» غبي وسخيف، لأن الطبيب... إذا لم يمت أيضاً؟

تملّكه شعور بالرعب، واشتدت ضربات قلبه، وراح يبحث عن شيء. ماذا يمكن أن يكون هناك شيء أسوأ بعد أن غاص في هذه الورطة حتى أذنيه؟

لكن لا، من المؤكد أن تينيمبوم قد مات. فقد رأى هيكل سيارة الفورد مغموراً تحت الماء، عجلاتها متجهة إلى الأعلى وهي لا تزال تدور، وقد فقد الرجل وعيه. لا بد أنه غرق. نعم، هذا أمر مؤكد. لكن ماذا لو تكلمت آراسيلي... سيزداد الأمر سوءاً، ولم يعد يستطيع الآن حتى أن يفكر في الهرب إلى باراغواي.

تناهى إليه صوت أمّه التي أخذت تقترب ثانية، وعلى الفور رآها تفتح باب غرفة النوم وتمدّ رأسها.

«هيه، راميرو، الفتاة تنتظرك».

«إني قادم يا أمّي».

راحت تراقبه وبدا له أنه رأى ظلالاً صغيرة من الشكّ في عينيها. بريق غامض غريب.

بعصبية، سألها: «كيف حال الطقس اليوم؟»

Arab_Books

«كيف تظن يا عزيزي؟ كما هو دائماً، حار ورطب، إن الشمس ستقضي علينا».

بحث راميرو عن حزام ولفّه حول بنطاله، ثمّ جلس على حافة السرير، وأخذ يرتدي جوربه ببطء، ثم انتعل حذاءه، وقال: «هناك أشياء أخرى ستقتلنا يا أمّي».

«ماذا تقول؟»

«لا تعيري أي اهتمام لما أقوله. أشعر بأني في حالة سيئة».

«هل أجلب لك أسبيرين؟»

ضحك راميرو. ضحكة ساخرة، قصيرة.

« إن الأسبيرين لا ينفع في ما أشعر به يا أمي؛ لا يوجد علاج لحالتي».

ضحكت هي أيضاً، بتوتر.

«حسناً، لقد استيقظ أحدهم وهو في مزاج سيّئ اليوم»، قالت، كما لو أنها تكلّم الحائط، كأن شخصاً يعشش داخل الطوب، بين الجص والطلاء.

ثمّ غادرت بسرعة.

«أسرع يا عزيزي»، قالت، وهي تغلق الباب.

انتهى راميرو من ارتداء ثيابه، وقال لنفسه هناك أمر واضح واحد على الأقل: وهو أنه يجب على آراسيلي ألاّ تتكلّم. قبل أن يغادر غرفة النوم أغمض عينيه وقال لنفسه إنه يجب أن يحافظ على رباطة جأشه. فمهما كان يدور في خلد الفتاة، يجب عليه أن يحافظ على هدوئه، وسيرى في ما بعد كيف يمكنه أن يخرسها.

Arab_Books

كانت تجلس في مقعد مريح ذي مسندين في غرفة الجلوس. كانت ترتدي بنطالاً أزرق، بنطال جينز مهترئاً يعانق ردفيها وفخذيها، وكانت ترتدي قميصاً رجالياً موشى بمربعات كبيرة، وكان شعرها مرفوعاً إلى الخلف في شكل كعكة؛ وقد أخفت خصلات شعرها عينيها، أو لعلهما حُجبتا لأنهما فقدتا بريقهما. رأى كدمة صغيرة فوق عظم خدّها الأيمن.

«مرحبا»، قال راميرو، محدّقاً فيها.

«مرحبا»، ردّت، ونهضت، وتوجّهت إليه وقبّلته بالقرب من فمه. غمزها راميرو وجلس على المقعد إلى جانبها. ومن المطبخ تناهى إليه صوت ضوضاء فأدرك أن أمّه لا بد تعدّ شيئاً، ربما كانت تعدّ له طعام الفطور، قهوة بالحليب والبسكويت.

«كيف حالك؟»

«لا بأس»، قالت من دون أن تبعد عينيها عنه. كانت تبدو جميلة.

«لا أعرف ماذا أقول، يا آراسيلي...». كان حقاً لا يعرف ماذا يقول. كانت تنصت إليه بصمت، منوَّمة من حضوره وكلماته، «لقد فقدت عقلي الليلة الماضية. أرجو أن تغفري لي لأنني كنت شديد الفظاظة معك. من الحماقة أن أقول ذلك يا حبيبتي، لكني... لم أكن أريد أن أؤذيك».

كانت تنظر إليه بإمعان. لم يستطع راميرو أن يفهم ماذا تعني تلك النظرة.

«كيف أتيتِ إلى هنا؟»

«أوصلتني أمّي».

Arab_Books

«وأين هي؟»

«إنها تبحث عن بابا. لقد اختفى ليلة البارحة».

«هل تعرف أين تبحث عنه؟»

«لا بدّ أنه كان ثملاً، كدأبه. ربما كان يزور أحد الأصدقاء».

«أها»، هدأ راميرو قليلاً. إذاً لم تكتشف الجثة بعد، «قولي لي... هل حدّثتِ أمّك بما جرى ليلة البارحة؟»

ابتسمت، وهي تحدّق فيه. قال راميرو إن عينيها جميلتان: واسعتان، داكنتان، فيهما بريق متجدّد. بشرتها زيتونية اللون، وحتى تلك الكدمة على عظم خدّها، كانت تضفي على وجهها رونقاً رقيقاً لمادونا عصر النهضة.

«هل أخبرتها؟»

«كيف يمكن أن يخطر لك ذلك؟» قالت، ولم تبعد نظرتها عنه، وهي تحرّك شفتيها المبللتين المكتنزتين.

كانا هادئين. كان الوضع محرجاً، وكان راميرو يريد أن يفكر بسرعة.

«قبّلني»، قالت له بصوت طفولي.

فتح عينيه على وسعيهما. كان دماغه أشبه بدماغ بعوضة. أغمضت عينيها وأمالت وجهها نحوه، وفمها نصف مفتوح لتلقّي قبلته. قال راميرو لنفسه إنها لا يمكن أن تكون بهذه الدرجة من البراءة والجمال. لكنه، في الوقت نفسه، ما كاد يبعد جسمه، حتى أحسّ أن فيها شيئاً مستفزاً وآثماً، شيئاً خبيثاً أفزعه. في تلك اللحظة، رنّ الهاتف، فوثب راميرو.

Arab_Books

ردت أمّه على الهاتف قبله.

«إنه لك يا راميرو. إنه خوان غومولكا؟»

تناول راميرو السماعة. كان مستغرقاً في التفكير. عضّ شفته السفلى قبل أن يجيب:

«مرحباً بولاك...»

«صديقي، إني بحاجة إلى السيارة بعد ظهر اليوم. في أيّ ساعة يمكنني المجيء لأخذها».

«آه، نعم، بولاك، إنها...»

«ما المشكلة يا صديقي؟»

«لا شيء، لقد استيقظت للتو، كما تعرف؟ لكن... لا، الحقيقة أنها ليست موجودة عندي. لقد أخذها....» ولم يشأ أن يذكر الاسم.

«لمن أعطيتها، هه؟»، قال غومولكا، مذعوراً.

«للدكتور تينيمبوم»، لم يكن لديه خيار آخر، «أعطيتها لدون برولیو».

«يا ابن القحبة، لقد أعرتها لك! هيا تابع وقل لي إنه كان سكراناً».

«نعم، يا صديقي، كان سكراناً مثل ظربان. أنا آسف».

«لكن هذا الرجل يسكر طوال الوقت، ألا تعرف ذلك؟ كيف يمكنك أن تفعل بي ذلك بحق الجحيم؟ إنك تعرف مدى تعلقي بسيارتي الفورد».

«أنا آسف، بولاك. سأرى إن كان بإمكاني أن أجدها، وسأجلبها لك مباشرة. في أيّ ساعة تريدها؟»

Arab_Books

«الساعة السادسة. سآتي إلى بيتك»، ووضع السماعة، غاضباً.

ذهب راميرو إلى المطبخ وطلب من أمّه أن تحضر لهما قهوة.

«إذاً، عن أي شيء ستتحدّث مع هذه الفتاة الصغيرة؟»

«حسناً، إنها تريد أن تدرس الحقوق، وطلبت مني ليلة البارحة أن أحدّثها عن باريس. . .»

فتح الثلاجة كما لو أنه يبحث عن شيء. كان يتحاشى النظر إلى عين أمّه، لكنّه كان يعرف أنها كانت تنتظر رداً أكثر إقناعاً.

«مسكينة»، أضاف راميرو، «إن هؤلاء الأطفال الذين يعيشون في الريف يظنون أن باريس مدينة قريبة المنال، وأن أي شخص يستطيع الذهاب إليها».

غادر المطبخ، شاعراً بالخجل لما قاله للتو.

عاد إلى غرفة الجلوس وجلس على الكنبة قبالة الفتاة. لم تكفّ عن النظر إليه. بدت مثل حيوان صغير، قطّة. نعم، كان لديها فضول قطّة، وذات الطريقة في الانسلال.

«لماذا جئتِ؟»

«كان يجب أن أراك»، قالت بصوت خجول منخفض، مغوٍ على نحو شيطاني.

«لم أكن أريد أن أسبب لك أي أذى»، وأحسّ بالحمق. كيف يمكنه أن يقول لها ذلك؟ بدا كأنه يسألها لماذا لم تمت. بحق الجحيم كيف لم تمت؟ أو لماذا لم تنبئه بأنها لم تكن ميتة؟ إذاً لاختلف الأمر كلّه. تملّكه الغضب.

Arab_Books

لكنها كانت لا تزال تنظر إليه، قالت: «إنك لم تؤذني. لقد أحببت ذلك، وأريد أن تفعل لي ذلك مرة أخرى. أريدك أن تأتي الليلة».

Arab_Books

١١

أحضرت أمّه القهوة وأبدت تعليقاً على الحرارة، وقالت إن الحرّ قائظ، وإنه أسوأ من الحرّ ليلة البارحة، يا إلهي، إن الحرّ لا يطاق، ثم سألت عن والديّ آراسيلي، وذكرت شيئاً عن الصداقة الوثيقة التي تربط بين زوجها المتوفى والطبيب. من الواضح أن ذلك الزمن كان مختلفاً، ثم سألت راميرو عمّا يريد أن يتناول على الغداء، لأنها ستذهب إلى السوق.

أجاب أنه لا يعرف إن كان سيأكل في البيت، وأن لا تقلق عليه؛ وقالت، موجّهة الكلام لنفسها أكثر منها لآراسيلي، إن راميرو هجرها، وإنه لم يعد، بعد سنوات عديدة من سفره، يمكث في البيت دقيقة واحدة. وهي بالطبع تتفهم ذلك، فكّري في الأمر يا عزيزتي، لهذا السبب خُلقت الأمّهات، حتى يفهمن أبناءهن؛ وتخيّلي أنه أصبح يأتي إلى البيت في وقت متأخر من الليل وينام لفترة قصيرة جداً، إنك ستضعف نفسك يا عزيزي. وصبّت القهوة.

«أمّاه، هل سمعتني عندما أتيت الليلة الماضية؟» سألها بنبرة عادية.

Arab_Books

«نعم، كانت الساعة الرابعة تقريباً. ألم أقل لك ذلك يا عزيزتي؟» قالت لآراسيلي.

أحسّ راميرو بالارتياح. فهي لم تسمعه إلا عندما عاد إلى البيت ليبحث عن أغراضه. قدمت لهما قليلاً من البسكويت، فاعتذرا عن تناوله، ثم غادرت غرفة الجلوس وقالت إنها ذاهبة إلى السوق، «لن أتأخر، وإذا جاءت كريستينا فيجب أن تبدأ بتقشير البطاطا لتجهيز طعام الغداء، وحدّث آراسيلي عن باريس يا عزيزي، وعن روعة برج إيفل».

شربا صامتين وسمعاها تغادر البيت. ثمّ انحنت آراسيلي إلى الوراء في مقعدها وباعدت بين ساقيها. رمقها راميرو، مستثاراً، وبدا أن تنفسها لم يكن منتظماً، مما جعل نهديها الصغيرين يعلوان. بدأت آراسيلي تعبث بالزرّ في قميصها القابع فوق نهدها تماماً.

نظر أحدهما إلى الآخر. كانا يتنفّسان بشيء من التوتر، بصوت يشبه الصفير، وكان فم كل منهما فاغراً.

«افعلها لي الآن»، قالت له بصوتها الطفولي.

Arab_Books

١٢

عند الظهيرة ذهبت كارمن تينيمبوم لإحضار ابنتها. كانت ترتدي بدلة كتّانية زرقاء فُصِّلت وخيطت لها، وبلوزة بيضاء مزدانة بالكشكش. كان وجهها ناحلاً، ولم يكن يبدو أنه تأثر بالحرارة؛ فلم تكن الانتفاخات تحت عينيها ومجمّل الرموش الذي سال على خديها بسبب الحرارة، بل بسبب الدموع التي ذرفتها. فقد بكت المرأة كثيراً. «لم نجده»، قالت لأمّ راميرو، ورفعت منديلها إلى أنفها، وأضافت، «لا أعرف كيف أفكر، إني أشعر باليأس».

«هيا يا كارمن، لا بد أنه موجود في مكان ما، فهذه ليست المرة الأولى»، أشعرتها ماريا بالراحة من دون أن تكون مقتنعة بما قالته.

«ألم تذهبي إلى الشرطة يا مدام؟» سألها راميرو.

«لم أذهب بعد. أخشى الذهاب إلى هناك».

ابتعدت آراسيلي عنهم وتوجهت إلى سيارة تينيمبوم من طراز بيجو.

«ماذا فعلتما ليلة البارحة يا راميرو؟» سألته، وهي تمخط.

«لا شيء، حقاً. فقد أراد دون برولیو أن يشتري لي شراباً،

Arab_Books

لكني قلت لا. فقد اشتغلت السيارة ثانية، وطلب مني أن أقلّه إلى ريسيستينسيا. ركب السيارة، وفي الحقيقة، لم أتمكن من منعه».

«إنه دائماً هكذا - عندما يضع شيئاً في رأسه...»

«ثم عدنا وأنزلني عند البيت. وطلب أن يستعير السيارة. ومرة أخرى لم أتمكن من رفض طلبه. إني قلق الآن لأن السيارة ليست لي، كما تعرفين، ولا أعرف ماذا سأقول لخوان غومولكا».

«متى غادرتما؟»

«لا أعرف. لا بد أنها كانت الساعة الثالثة تقريباً. لم يغمض لي جفن بسبب الحرارة»، قال متلعثماً، مرغماً نفسه على ألاّ ينظر إلى آراسيلي، المنحنية على باب سيارة البيجو وهي تنظر إليهم، «فقرّرت أن أنهض وأغادر، وصادفته في الخارج. كان شديد...»

«السكر؟»

«نعم».

«يا إلهي، يا له من كابوس...»، بدا أنها ستبكي مرة أخرى، لكنها تمالكت نفسها بسرعة. «حسناً، سنذهب الآن. سأواصل البحث عنه؛ لم أذهب إلى بيت روميرو أو إلى بيت فريشيني بعد».

اتجهت نحو سيارة البيجو وركبت السيارة هي وآراسيلي. وعندما بدأت السيارة تتحرك، نظرت إليه الفتاة بنظرتها الواهنة ولوّحت له. قال راميرو لنفسه إنه لم يفهم شيئاً، ثم استلقى على سريره ليفكّر. كان متوتراً وخائفاً. في الواقع، لم يعد يستطيع أن يعيش في هذه الحيرة، كانت مخاوف الآخرين تضغط عليه أيضاً؛ فماذا سيقول لغومولكا عندما يأتي إليه في الساعة السادسة. فقد

Arab_Books

كان غومولكا مهووساً بسيارته الفورد ٤٧، والأهم من كل ذلك، قال راميرو لنفسه، إنه مجرد متعصّب مسكين، وليس جامع سيارات غني، وهذا من أردأ الأنواع. ولا بد أن غومولكا سيطلب الشرطة للبحث عن سيارته. ومن المؤكد أن فقدان صداقته لم يكن يشكل له أي قلق.

لكن هذا ليس كلّ شيء، قال لنفسه، وهو يدخّن في غرفته شبه المعتمة، حيث الحرارة أقلّ حدّة. فلعله سيتوجه إلى الجسر ليرى كيف انتهى الأمر بسيارته. لماذا لم يجدوها بعد؟ فليس من المحتمل أن يكون منسوب النهر قد ارتفع فجأة، لأن نهر نغرو عملياً نهر جاف. وعلى الرغم من العتمة الشديدة، رأى العجلات وهي تدور بلا جدوى فوق سطح الماء. هل من الممكن أن تغرق السيارة ببطء بعد ذلك لأن القاع مستنقعي؟ لم يفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك، لكن لا شيء يبدو مستحيلاً. ربما كان عليه أن يتوجه إلى هناك، لكن الفكرة أرعبته. تذكّر الروايات البوليسية التي يعود فيها القاتل دائماً إلى مسرح الجريمة. لا، من السخف أن يضع نفسه في حالة مماثلة، لكن من الواضح أنه كان يرغب في أن يذهب، على الرغم من أنه كان بحاجة إلى عذر جيد بل ممتاز لكي لا يأخذ قيلولة في تلك الساعة - بما أنه سيمرّ بالقرب من المكان على أطراف المدينة بعد أن يتناول طعام الغداء. لا عذر لديه، سواء أكان جيداً أم سيئاً، ولم تكن لديه سيارة، لذلك كان عليه أن يستعير سيارة أخرى، أو يستقل سيارة أجرة، وهذا أمر سخيف للغاية.

لكن ماذا لو كانت الشرطة قد عثرت على سيارة الفورد للتو

Arab_Books

وأنهم ينتظرون قدومه؟ لا، فلماذا ينتظرونه؟ حسناً، لم لا؟ ففي تلك الساعة، من المحتمل أن يكونوا قد ذهبوا إلى فونتانا، وأن كارمن أخبرتهم بأنه هو، راميرو، كان آخر شخص برفقة تينيمبوم.

بالإضافة إلى كلّ ذلك، هناك آراسيلي. يا لها من فتاة، يا إلهي، إنها أروع من أن تصدّق. لكنها فتاة خطيرة مثل قرد يحمل شفرة، ولم يتمكن من فهمها. إنه لن يفهم النساء. كان يقول لنفسه على الدوام إن ما يميزهن هو تقلّب مزاجهن، أما الآن فإن هذا الشيء هو الذي دفعه إلى حافة اليأس؛ وكان يفهم أن هذا هو رأي «ذكر متعصب». أما الشيء الذي لم يفهمه حقاً فهو الحالة الإنسانية. وماذا كان ذلك؟ تساءل. كيف يمكنه أن يكون متغطرساً إلى درجة أن يتملكه كلّ الرعب الذي يستطيع إنسان تحمّله؟ لأنه، قال لنفسه، وهو ينظر إلى الفناء عبر نافذة غرفة الطعام، ربما لم تكن الحالة الإنسانية برهاناً على الأزل. ما الشيء الذي لا يستطيع الرجل أن يفعله؟ هل يمكن أن يؤمن أي شخص بوجود أيّ حدود؟ إن حالته مثال جيد على ذلك.

احتقر نفسه وأحس بندم عميق ممزوج في الوقت نفسه بزهو مخيف متزايد. نعم، بحقّ الجحيم، إن دهاءه يفوق دهاء الجميع وسيخرج من كل ذلك، بالرغم من عدم وجود وسيلة غير ذلك. لم يعد يعرف حدوداً؛ فهو قادر على كلّ شيء. ومع أن شيئاً غير معروف وبّخه على أفكاره الحقيرة، فلم يتوقف عن الزهو بنفسه.

نعم، إن الحالة الإنسانية هي كذلك تلك القدرة الرائعة على مواجهة أيّ حالة، والقدرة على تغيير كلّ شيء. آه، لكن الشعور بالزهو والرعب توليفة سيئة عندما يجتمعان، قال لنفسه. ما أشدّ ما

Arab_Books

كان يتمنى لو أن الأمر لا يتعلق بذلك القلق اللعين الذي يعتريه . . .

لم يكد يستطيع أن يتناول طعامه، فلاذ بالصمت. أثناء الغداء تحدثت أخته كريستينا عن كراهيتها لمدمني الخمر، ثمّ تحدثت عن أمّها وذكرت سوء حظ كارمن لأن زوجها سكير. قال راميرو، إنها امرأة متزمتة لعينة، لا تعرف أيّ شيء عن أيّ شيء، لكنها لا تزال تدلي برأيها. دائماً الجهلة هم الذين يدلون برأيهم.

«إنك منحرف المزاج»، قالت أمّه مرتين عندما كانوا يتناولون الطعام.

وافق وقال شيئاً ليتحاشى أيّ تفسير.

«أما زال لديك صداع؟»

«متى كان عندي صداع؟»

«هذا الصباح، عندما استيقظت. قلت إنك لم تكن على ما يرام».

«لا تهتمي بي. حلمت حلماً سيئاً»، غيّر كلماته وأضاف ساخراً: «كان كابوساً، لكنه انتهى الآن».

رفعت المرأتان الصحون عن الطاولة بينما أخذ يقشّر برتقالة لم يتناولها. في المطبخ، قالت كريستينا إن آراسيلي جميلة جداً؛ وقالت إنها تتساءل هل لديها رفيق، لأنك كما تعرفين، يا أمّي، أصبحت الفتيات يصاحبن الفتيان الآن في وقت مبكر.

إنها تدلي برأيها؛ هذه البلهاء التي تبلغ الثانية والعشرين سنة من العمر تدلي برأيها، قال راميرو لنفسه. تساءل هل تغار. ابتسم للا أحد وقال لنفسه إن الغباء حالة إنسانية.

Arab_Books

ثم قدّمتا له القهوة. كان لا يزال يحتسيها/عندما رن الجرس.

ذهبت كريستينا لترى من بالباب. عادت وعلى وجهها تعابير قلق وعيناها نصف مغمضتين.

«توجد سيارة شرطة في الخارج، وشرطي يسأل عنك يا راميرو...»

Arab_Books

الفصل الثالث

نحن لسنا رجالاً نبتلع الجِمال لنطرحها في البراز.
ناثانايل ويست، الآنسة لونلي هارتس

١٣

وصلت سيارة الفالكون إلى مديرية الشرطة وتوقفت في الباحة الصغيرة. كانت سيارة شرطة أخرى مركونة هناك، شاحنة صغيرة توجد على بابها الخلفي قضبان حديدية، وسيارتان أخريان لونهما أخضر فاتح عليهما هوائيات لاسلكي صغيرة، ولا توجد عليهما لوحات. وأدرك راميرو على الفور أن هذه السيارات المرعبة هي سيارات الشرطة السرية.

اقتادوه إلى مكتب صغير في نهاية الممر. لم يكن يوجد سوى باب واحد قبالة الممشى المحيط بفناء المبنى. كانت غرفة صغيرة جداً، وكان الأثاث الوحيد فيها كرسيان ومنضدة عليها آلة كاتبة قديمة جداً (أندروود من الثلاثينات)، ورزنامة رخيصة معلقة على الحائط. كان هذا كل شيء.

ظل الرقيب الذي رافقه واقفاً عند الباب، وراح يدخّن، وبعد

Arab_Books

بضع دقائق غادر عندما دخل إلى الغرفة رجل طويل، نحيف شعره قصير، لكنه أطول من المعتاد بالنسبة لشرطي يعمل في ظل نظام عسكري. كان يرتدي بنطالاً أزرق، وقميصاً أزرق خفيفاً كُمّاه طويلان مشمّران إلى الأعلى، ويرتدي ربطة عنق أرخى عقدتها. لا بد أنه ترك سترته في مكان آخر.

«يسرني لقاؤك، يا سيد بيرناردیز»، قال، مادّاً يده.

مدّ راميرو يده، وأومأ برأسه. كان قد قال لنفسه إنه يجب أن يكون شديد الحذر، ولم يكن ينوي أن يتكلم إلا إذا استدعت الضرورة القصوى.

«أنظر، سأدخل في الموضوع مباشرة يا سيد بيرناردیز؛ أرجو أن تسامحنا على إزعاجك، لكننا عثرنا على جثة صديق لك، الدكتور بروليو تينيمبوم...». توقّف ليشعل سيجارة، وراح يحدّق به من خلال الدخان.

«جثة؟» كرّر راميرو بصوت عالي النبرة، وهو لا يزال يحدّق به، وفمه نصف فاغر.

«هذا صحيح. يبدو أن موته نجم عن حادث، لكنك تفهم أننا يجب أن نتحقق من ذلك. سيجارة؟»

«نعم، شكراً»، وأخذ راميرو العلبة، وسحب منها سيجارة. كان في حالة شديدة من التوتر، وترك نفسه في هذه الحالة. قال لنفسه إنه من الأفضل أن يتظاهر بأنه أصيب بصدمة، ويجعل الآخر يصدّقه. «أين حدث ذلك؟ ما نوع الحادث؟»

«لقد وجدنا الجسد داخل سيارة فورد موديل ١٩٤٧. يبدو أنه

Arab_Books

فقد القدرة على التحكم بالسيارة فسقطت في أحد روافد نهر نيغرو على الطريق ١١. ونحن نفهـ...»

«خراء!» قاطعه راميرو، وهو يهزّ رأسه.

«ماذا في الأمر؟»

«كلّ شيء»، قال وهو يمرر يده عبر شعره، كأنه شخص بائس، «أنا صديق الأسرة، وأظن أنك أحضرتني إلى هنا لهذا السبب. تناولت العشاء معهم ليلة البارحة، لكن بالإضافة إلى ذلك، فقد استعرت تلك السيارة. وإذا استدعتك الشرطة في هذه الأيام... ألا يبدو ذلك شيئاً خطيراً بالنسبة لك؟»

«نريد أن تقدم لنا بعض المعلومات».

«نعم، طبعاً»، استمر راميرو في تظاهره بالصدمة، وربما بالحزن أيضاً، قال لنفسه، وبالألم، لأنه، بالرغم من كل شيء، فإن الحالة، حالته، مؤلمة للغاية...

«إني أتفهم شعورك، لكني يجب أن أطرح عليك بعض الأسئلة».

«تفضل يا سيد...»

«ألميرون، المفتش ألميرون».

«ماذا تريد أن تعرف أيها المفتش؟»

«علمنا أنك كنت آخر شخص كان برفقته».

«أظن ذلك. لكني لا أعرف مع من ذهب بعد ذلك».

«أريد أن تشرح لي بأكبر قدر من التفاصيل ماذا فعلت ليلة البارحة».

Arab_Books

لبث راميرو صامتاً، وقال لنفسه إن شيئاً من التردّد يناسب الحالة، وإنه يجب ألاّ يفضي بكلّ شيء يعرفه على الفور. أضاف ألميرون قائلاً:

«افهم يا سيد أنّ هذا شيء روتيني من الناحية العملية»، وأكّد على عبارة «من الناحية العملية».

«نعم، نعم، إني أحاول أن أرتّب أفكاري... حسناً، لقد دعتني أسرة تينيمبوم إلى العشاء. عند حوالى منتصف الليل، كنت على وشك أن أغادر، لكن السيارة، الفورد التي تتحدّث عنها والتي أعارني إياها صديقي خوان غومولكا، لم تشتغل. أظنّ أن البنزين لم يصل جيداً إلى المحرّك، لا أعرف. إذاً، كانوا قد دعوني لقضاء الليلة في فونتانا، وألحّ الدكتور تينيمبوم نفسه بأن السيارة قد تتعطل وتتوقّف على الطريق. بدا ذلك معقولاً لي لأن الوقت كان متأخّراً جداً، بعد منتصف الليل. فبقيت، لكن النوم جافاني. فقد كانت الحرارة، كما تعرف، مرتفعة في الليل، وكنت قد وصلت لتوي من شتاء أوروبي... ولم يكن سريري، لا أعرف، الحقيقة هي أنني قرّرت أن أرى هل ستشتغل السيارة...»

«هل تتذكّر كم كانت الساعة؟»

«نعم...، ليس تماماً، لكن كانت الساعة حوالى الثانية والنصف أو الثالثة صباحاً».

«تابع، أرجوك».

«خارج البيت، ما إن تمكنت من تشغيل السيارة، حتى ظهر الدكتور تينيمبوم. بل إنه باغتني لأنني كنت أظنه نائماً. أراد أن يدعوني لاحتساء النبيذ، كان... في حالة سكر شديد، فقلت لا،

Arab_Books

لكنه ركب السيارة وطلب مني أن أوصله إلى ريسيستينسيا. لم أتمكن من رفض طلبه، كما تعرف، فلم أكن أريد أن أزعجه، فالناس، عندما يكونون سكارى. . .»

«ثمّ ماذا حدث؟» لم يرفع ألميرون عينيه عنه.

«حسناً، أحسست بتلبك في معدتي، لكن ليس من الكحول، فأوقفتُ السيارة حتى أتقيأ. ظهرت سيارة شرطة فجأة، واضطررنا لأن نريهم هوياتنا الشخصية. لا أعرف كم كانت الساعة. بعد ذلك، وصلنا إلى بيتي، وطلب تينيمبوم أن أعيره السيارة. مرة أخرى، لم أستطع أن أقول لا، وهذا ما أندم عليه كثيراً الآن. لكنني لم أستطع أن أرفض طلبه. فقد كان في غاية التوتر والعصبية، ثم ذهب».

«اقتربت سيارة الشرطة منكما في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة»، قال ألميرون، وتساءل راميرو عمّا إذا كان يحاول أن يخيفه بهذه المعلومات الدقيقة، ويعلمه بأنهم يؤكّدون التفاصيل. «وأين تركك؟»

«في بيتي».

«هل قال لك إلى أين ينوي أن يذهب؟»

«إلى حانة تدعى لا إستريلا».

«هل تتذكّر كم كانت الساعة عندما تركك؟»

«لا، لكني أظن أنها كانت حوالى الساعة الرابعة، ربّما أكثر بقليل. لقد قرأتُ قليلاً، لا أعرف إلى متى، وأطفأتُ النور عند الخامسة تماماً. أتذكّر ذلك لأنني نظرت إلى . . .»

«استناداً إلى ما قاله الطبيب الشرعي، مات تينيمبوم حوالى

Arab_Books

الساعة الخامسة والنصف صباحاً. ماذا كنت تفعل في تلك الساعة؟»

«كنتُ نائماً، طبعاً»، قال راميرو مبتسماً، «لا أعرف هل يمكنني إثبات ذلك أيها المفتش، أفلست أحد المشتبه فيهم؟»

«لم أقل إنّ تينيمبوم قد قتل. إننا نقوم بتدقيق الحقائق فقط».

قال: «أفهم»، وأضاف على الفور، «أيها المفتش، أعرف أنك أنت من يطرح الأسئلة، لكن دعني أسألك سؤالين: هل تظن أن لهذا علاقة بالأنشطة الثورية؟»

«لا، لا أظن ذلك»، وأومأ ألميرون بيده كأنه يستبعد الفكرة.

لذلك، في هذا البلد لا يوجد شيء خطير، قال راميرو لنفسه. يا له من بلد: فجريمة قتل ليست مهمة. وفي ظل حالة الحصار والحكم العرفي، فإنهم لا يريدون إلا اصطياد الثوريين. فليس لجريمة بدون دافع سياسي، في هذه الأوقات، أهمية لأبناء القحبة هؤلاء. نظر ألميرون إليه بعينين متساءلتين.

«والسؤال الآخر؟»

«ماذا؟»

«قلت إنك تريد أن تسألني سؤالين».

«آه، نعم. هل تظن أن تينيمبوم قد انتحر؟»

«لا أعرف. لا أرى دافعاً وراء ذلك. لكن لا يبدو أنه حادث أيضاً»، فكّر لوهلة، كما لو كان يشكّ إن كان عليه أن يقول ما كان سيقوله. ثمّ قال: «توجد آثار تدل على أن السيارة توقفت على جانب الطريق. فالشخص الذي سينتحر لا يتوقّف ليفكر ثانية

Arab_Books

بالانتحار في اللحظة الأخيرة، والسكران لا يخطّط لحادث على مسافة مئة متر قبل أن يحطم السيارة».

«إذاً؟ فالاحتمالية الثانية تقول إنه قتل، لكنك قلت إنك لا تظن أن تينيمبوم قد قتل».

«ولم أقل إنني أظن أنه لم يقتل».

«أفهم».

استوى ألميرون واقفاً.

«سيرافقونك إلى البيت، يا سيد بيرناريز، واعذرني على الإزعاج. وأطلب منك ألاّ تغادر المدينة من دون إخطارنا. لا أظن أنك تريد أن تضيف شيئاً، صحيح؟ شخصاً رأيته، شيئاً آخر فعلته...»

فكّر راميرو لثانية. تذكّر سائق الشاحنة، لكنه لم يعد بإمكانه أن يغيّر روايته الآن.

فقال: «لا. ليس لديّ ما أضيفه».

Arab_Books

١٤

قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، كلّم راميرو خوان غومولكا الذي كان، حسب ما قاله، يبدو أنه في مزاج جيد، يستمع إلى أسطوانة ليون جيكو بعد أن أخذ قيلولة. لكن صوته وبهجته تلاشيا عندما أوضح له راميرو أن سيارته قد تحطمت وأضحت قطعاً متناثرة وأنها موجودة في باحة مركز الشرطة. فأخذ يصرخ، ويهينه، وقال له إن صداقتهما قد انتهت، وإن ذلك كان خيانة للثقة التي منحه إياها. أنصت راميرو إليه وهو يصرخ، وكان يردّ على كلّ ما يقوله بكلمة نعم، ووعده بأن يعوضه عن جميع الأضرار التي وقعت عندما يصبح بإمكانه ذلك. وأقسم غومولكا بأنه لا توجد أموال كافية في العالم يمكنها أن تعوض عن الضرر الأخلاقي، لأنه أعاد ترميم سيارة الفورد تلك بيديه وأبقى أجزاءها الأصلية. لن أغفر لك ذلك. أريد أن أموت.

أغلق راميرو الهاتف وأخذ حماماً بارداً. ثمّ ارتدى ثيابه وتوجه إلى محطّة الحافلات؛ ثم ركب حافلة تقله إلى فونتانا، لأنه يجب أن يحضر عشية وفاة تينيمبوم. بعد ذلك، يجب أن يجد أحداً يعيده إلى البيت، أو عليه أن يستقل حافلة أخرى، بعدها

Arab_Books

سينام عشرين ساعة متواصلة. أما بالنسبة للجريمة، فلا يوجد شيء يمكن أن يفعله سوى أن يطلب من الله السلامة.

كان هناك أناس كثيرون، وكانوا جميعهم يتحدّثون عن موت تينيمبوم المروّع، وخمّن العديد منهم أن شيئاً آخر كان من الممكن أن يحدث، وبقولهم «شيء» كانوا يلمحون إلى احتمال أنها جريمة أو انتحار. وبدا أن جميعهم استبعدوا فكرة الحادث، وقد أثارهم ذلك. واعترى راميرو شعور بالانزعاج الحقيقي عندما لاحظ أن التعليقات تخفّ حدتها عندما يكون موجوداً بينهم؛ لكنه قال لنفسه أيضاً إن إحساسه بالشك ومخاوفه ربما كانت تجعله يتخيل ذلك.

عندما صعد الدرج، محاذياً غرفة الجلوس التي وضعوا فيها التابوت المغلق الذي يرقد في داخله جثمان تينيمبوم، قال لنفسه إنه لم يكن يريد مطلقاً أن يكون بارد الأعصاب في مناسبة كهذه، لامبالياً مثل مينايا ألفار فانيز في قصيدته «السيد» الملحمية «ذاك الذي يفعل كلّ شيء بحذر». في الطابق العلوي، لم يجرؤ على النظر إلى الأرملة. وما إن رأته آراسيلي، حتى قال لنفسه: «ليذهب مينايا إلى الجحيم». وبتصميم، توجّه نحوها. كانت ترتدي رداء أسود رقيقاً، مشدوداً عند الصدر، ومنفلشاً عند التنورة التي هبطت إلى أسفل ركبتيها. وبشعرها الأسود المشدود إلى الخلف، بدت كأنها خارجة من لوحة روميرو دي تونز. وتساءل راميرو كيف يمكن أن يكون فيها هذا القدر من الجمال، وفي الوقت نفسه، في وجهها هذا القدر من الشرّ عندما قبّلته. كانت في الثالثة عشرة من عمرها، لكن يا إلهي، كم كبرت في الساعات القليلة الماضية. كان خائفاً.

Arab_Books

عندما حلّ الظلام، كانت الحرارة لا تزال لا تطاق. غادر الكثيرون، في حين كانت الأرملة لا تزال في غرفة نومها. كان راميرو يتساءل هل الوقت ملائم حتى يغادر، عندما أمسكت آراسيلي بذراعه بثقة وقالت له: «هيا نتمشى قليلاً» وانطلقت من دون أن تنتظر ردّه.

ابتعدا عن البيت وراحا يسيران في الممر الترابي. لبث راميرو صامتاً، شاعراً أن أحداً يراقبه من الخلف، وقال لنفسه إنه يجازف مجازفة كبيرة؛ لكنه في الوقت نفسه، لام نفسه على شعوره بالخوف، لأنه لا يمكن أن يظن الناس السوء بفتاة لا تتجاوز الثالثة عشرة مات أبوها للتو، ولا عنه، الذي لا بد أنهم رأوا فيه أخاً أكبر، درس في باريس وعاد مؤخراً إلى إل تشاكو.

نظر إلى آراسيلي من طرف عينه. فعلى الرغم من وجود أسباب كثيرة تجعل هذه الفتاة تبكي لوفاة أبيها، لم يرها تذرف دمعة واحدة، ولم يبد عليها أيّ تأثر، ولم تظهر على وجهها أي تعابير تشي بالحزن. فقد قاتلت وقاومت في الليلة الماضية، أما الآن، فقد بدت له أنها قُدَّت من فولاذ.

«جاءت الشرطة»، قالت بصوت خفيض، ومن دون أن تنظر إليه. قالتها بلا مبالاة وهي تمشي وعيناها مسمّرتان على قدميها.

آثر راميرو أن لا يقول شيئاً.

«طرحوا علينا أسئلة، أنا وأمّي وإخوتي».

بدأت آراسيلي تبتعد عن الدرب ببطء. التفت راميرو ونظر إلى الوراء. لم يعد منزل تينيمبوم على مرمى البصر. توجهت

Arab_Books

آراسيلي إلى شجرة في بقعة بدأت تكسوها شجيرات وأعشاب. وعلى مسافة غير بعيدة، ازدادت النباتات كثافة، واختفت في عتمة الليل.

«عن؟»

«كانوا يريدون أن يعرفوا في أي ساعة غادرت، أنت وأبي».

«و؟»

«لم يعرف أحد ماذا يقول لهم».

«حتى أنتِ؟»

«لا، حتى أنا».

«ماذا قلتِ؟»

أسندت آراسيلي ظهرها إلى الشجرة ذات الجذع المائل قليلاً. كانت تتنفّس بصعوبة.

«لا تقلق».

مررت يديها على فخذيها برقة وبطريقة إيحائية، إلى الأعلى وإلى الأسفل. ازداد تنفّسها ثقلاً. كانت تتنفس وفمها فاغر. أدرك راميرو استثارته.

«تعال»، قالت، وهي ترفع تنورتها. وفي بريق القمر الباهت، بدت ساقاها رائعتين، رشيقتين، ناعمتين، وقد لوحّتهما الشمس قليلاً، وأحسّ راميرو أنه على وشك أن يقذف عندما رأى أنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت فستانها. كانت مبللة. أحنت ساقيها، واخترقها راميرو بخوار مثل حيوان، وراح يردد اسمها، آراسيلي، آراسيلي، يا إلهي، ستفقدينني عقلي يا آراسيلي. كانا يتحرّكان

Arab_Books

كحيوانين، يداعب أحدهما الآخر، ويتعلّق أحدهما بالآخر، ويذوب مثل النحاس والنيكل. كانت يداها تتشبثان بظهره، وأحسّ راميرو أيضاً بأسنانها تقضم وتعضّ أذنه وتلعقها بلسانها، مبلّلة رقبته، بينما راحا ينخران كلاهما بمتعة شديدة.

عندما انتهيا، ظل أحدهما متعلقاً بالآخر، يستمع كلّ منهما إلى لهاث الآخر وتنفسه. فتح راميرو عينيه ورأى جذع الشجرة، شجرة لاباتشو ضخمة قديمة، وخيّل إليه أنه وجد في ثنايا اللحاء الحيرة والشك، الرعب والإثارة التي أثارتها آراسيلي فيه. وخيّل إليه أنه اكتشف أنه يتعلّق بشيء شرير، مشؤوم ومثير للقرف. لكنه رأى أيضاً أن الشرّ يقبع في سلوكه لأنه أفسد الفتاة.

في الثانية والثلاثين من عمره دهمه إحساس مفاجئ بأن مستقبله قد انتهى، دُمِّر اجتماعياً. شعر بأن حياته المهنية قد انتهت في وقت مبكر، ولم يعد من الممكن أن يصبح عضواً في الهيئة التدريسية في الجامعة، أو أن يُرشَّح في المستقبل وأن يتبوأ منصب مسؤول في الحكومة العسكرية، أو منصب قاض، أو وزير. لقد تهدمت كلّ أحلامه، وهذه الفتاة، هذه المراهقة، التي تسحبه الآن بعزيمة شيطانية، التي قد تكون بعمر ابنته؛ ربما يكون قد حبّلها. بدأ إحساسه بالمبادىء الأخلاقية ينهار، وهذا أسوأ من أن يكون قاتلاً. لم يتمكن من احتواء مشاعره وعواطفه. ستظل عواطفه كلّها تفيض من تلك النقطة مثل نهر بارانا في كلّ سنة. كانت آراسيلي نهمة إلى درجة لا يمكن كبحها، وهو كذلك. يمكنهما أن ينعلا أيّ شيء شرير إذا التقيا. الجريمة هي أن تعيش هكذا، متقداً ولاهباً كالقمر الذي يشهد على عناقهما.

Arab_Books

ابتعد أحدهما عن الآخر وسوّيا ثيابهما بصمت. سارا صوب البيت، راحا يسيران بالهدوء نفسه الذي غادرا به.

وفي وسط الدرب، اقتربت منهما هيئة شخص من الظلال. سرت رعشة باردة في جسد راميرو عندما أدرك أن أحداً قد يكون رآهما. عندما رأى المفتش ألميرون، تسمّر في مكانه، مذعوراً.

Arab_Books

١٥

«مساء الخير»، قال ألميرون، ثمّ التفت إلى آراسيلي، وقال: «مساء الخير يا آنسة».

رحب راميرو وآراسيلي به بإيماءة برأسيهما.

«سيد بيرناردیز، يجب أن تأتي معنا».

«في هذه الساعة، أيها المفتش؟»

«نعم، أرجوك»، وألقى نظرة أخرى على آراسيلي، وقال: «عودي فوراً إلى البيت، يا آنسة تينيمبوم».

بوداعة، نفذت آراسيلي ما طلبه منها المفتش وغادرت من دون أن تلقي تحية الوداع عليهما. حتى إنها لم تنظر إلى راميرو.

«هل أنا مقبوض عليّ؟ هل يوجد سبب؟»

«أطلب منك أن تأتي معنا. ستتكلّم لاحقاً في المركز».

«مسألة روتينية أخرى؟»

«سيد بيرناردیز، إننا نحاول أن نكون كتومين ومتحفظين».

«في هذا البلد، ليس التحفظ من خصال الشرطة أيها المفتش».

«تعال معنا، أرجوك».

استدار ألميرون وتوجّه نحو سيارة الفالكون الرمادية. لاحظ

Arab_Books

راميرو عدم وجود لوحة عليها. ومن الجانب الآخر من الطريق، ظهر أيضاً رجل مربوع القامة، يرتدي بدلة زرقاء داكنة لماعة. استقل ثلاثتهم السيارة، التي راح يقودها شرطي ثالث، رجل ضخم داكن البشرة، يضع أكمام قميص، ويحمل بيده منديلاً، رطباً مبللاً بالعرق.

توجهوا نحو ريسيستينسيا بصمت. آثر راميرو ألاّ يستمرّ في طرح أسئلته وتهكّمه. وعلى الرغم من شدة الحرارة، كان الجوّ في سيارة الشرطة شديد البرودة، لذلك أمضى وقته وهو يتطلع إلى القمر من النافذة. في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧(*)، كان البلد كله لاهباً خانقاً. تذكّر آراسيلي، وتذكّر الورطة التي وقع فيها، واعترته موجة من الرعب.

عندما وصلوا إلى مركز الشرطة، قاده ألميرون والرجل المربوع إلى الغرفة نفسها التي كانوا فيها عند الظهر. كان المصباح الذي يضيء الغرفة بقوة ١٠٠ واط، يبعث حرارة شديدة. طلبوا منه أن يجلس على كرسي. أمسك ألميرون الكرسي الآخر، أداره وجلس عليه ضاغطاً صدره على مسند الكرسي، وراح يحدق بيديه، كما لو كان يريد أن يقول إن لديه كلّ الوقت المتوفر في العالم. أما الرجل الآخر، فقد ظل واقفاً بالقرب من الباب الموارب.

(*) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧، بلغ القمع ذروته في ظل الحكومة العسكرية التي تشكلت بعد الانقلاب العسكري، واستمرت الدكتاتورية العسكرية في الأرجنتين من آذار (مارس) ١٩٧٦ حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٣.

Arab_Books

«انظر يا سيد بيرناردیز»، قال ألميرون، بعد أن أطلق تنهيدة كبيرة بطريقة مسرحية، «سأكون صريحاً معك: توجد أشياء كثيرة غير مكتملة في هذه القضية. أعد عليّ بأدق التفاصيل ماذا فعلت ليلة البارحة».

نفذ راميرو ما طلبه منه. استغرق وقتاً طويلاً، وكرّر كلّ شيء بصوت ثابت، وكرر ما كان قد قاله من قبل. بل أسهب في التفاصيل، وتحدث عن التقائه بشرطة الدورية، وذكر ما تحدّث به مع تينيمبوم: عن صداقة الطبيب مع أبيه؛ عن فوكو (افترض راميرو أنّ ألميرون لا يعرف من هو، لكن ذلك مكّنه ثانية من إثارة الموضوع لأنه كان قد أمضى وقتاً في باريس)؛ واختتم بالقول إن أمّه تستطيع أن تؤكد وقت عودته إلى البيت. عندما أنهى كلامه، شعر بأنه راض عن القصة التي رواها.

«هل تريدني أن أصدقك القول يا سيد بيرناردیز؟» قال ألميرون، مومئاً برأسه عدة مرات. رمقه راميرو، عابساً.

«أظن أن تسعة وتسعين في المائة مما تقوله صحيح. أما الواحد في المائة المتبقي فهو الذي يزعجني».

واصل راميرو النظر إليه من دون أن يجيبه. لقد حوصر، لكن الصمت كان ورقته الرابحة. سيتمسّك بقصّته. بإمكانه أن يكرّرها عشرين مرة، ولن يتمكنوا من زحزحته. بالإضافة إلى ذلك، فإنه بتكرار قصّته سيقنع نفسه إلى درجة أكبر بأن هذه الأمور قد حدثت بالفعل، وإذا وجّهوا له تهمة مباشرة، فإن ردّه سيكون الإنكار. سينكرها مراراً وتكراراً.

بدأ ألميرون ثانية:

Arab_Books

«أليس من الغريب أن نجد بصماتك على مقود السيارة وعلى ذراع نقل السرعة أكثر من بصمات تينيمبوم».

«كنت أقود السيارة طوال الوقت تقريباً».

«لكن حسب روايتك، فإنك لا تعرف المسافة التي قادها تينيمبوم»، قال المفتش.

فقال راميرو لنفسه إنه أحمق. كان يجب ألاّ يتفوه بأكثر من اللازم.

«قلتَ لي إنه اصطدم بشيء. لا بد أنه قاد السيارة لمسافة، صحيح؟»

«هذا – الحقيقة أنه لا توجد له بصمات كثيرة- هذا ما أثار انتباهي. كأن ضربة قوية قد وجهت إليه»، ورمق راميرو، «ثم وضِعت يداه في أماكن عديدة في السيارة ليترك بصماته عليها».

هزّ راميرو كتفيه، لكنّه شعر بالخوف. ابتلع مشاعره، ونظر إلى المصباح ليبعد انتباهه.

«وهناك شيء آخر»، قال ألميرون بهدوء، كما لو كان متعباً، وباستسلام، «لأنه يبدو لي كأن أحداً قد وضعه وراء المقود. ألم تر شخصاً آخر ركب السيارة بعد أن أوصلك إلى البيت؟»

«لا. لو حدث شيء من هذا القبيل، لكنت قلت لك».

«طبعاً».

أشعل ألميرون سيجارة أخرى من دون أن يعرض عليه واحدة.

«ويقول الطبيب الشرعي إنه يوجد رض على الجثة، مثل

Arab_Books

كدمة، هنا على الذقن؟» ولمس ذقنه، ونقر عليها مرّتين، وأضاف، «في رأيي، ضُرب حتى غاب عن الوعي، ثمّ وضع وراء المقود ثم حرّكت السيارة».

«إنك تملك خيالاً رائعاً»، أراد راميرو أن يقول، لكنه أقسم بأن لا يقول شيئاً إذا لم تطرح عليه أسئلة متماسكة. لكن على الرغم من ذلك، رفع رأسه وقال:

«هل تظن أنني أنا من قتله؟»

رمقه ألميرون بنظرة، وحدّق أحدهما في الآخر لبضع ثوانٍ. قال راميرو لنفسه إن هذا الرجل شديد الذكاء، ليس أحمق.

«بطريقة ما يبدو الأمر كذلك»، بدا أن الرجل ندم على ما قاله، «لكني لا أستطيع أن أثبت ذلك. فلا أرى دافعاً يدفعك إلى ذلك، مع أن... انظر، إنك ذكي، شاب، درست في فرنسا، وهو أمر غير عادي في هذه المنطقة، وعدت في فترة ذات خصوصية شديدة في تاريخ البلد. وقد سمعت أنك ستغدو أستاذاً في الجامعة، وسجلك نظيف، ولديك أصدقاء وعلاقات ممتازة، ولم تفسدك الأوضاع الراهنة. بالإضافة إلى ذلك، فقد دققنا في صداقتك القديمة مع عائلة تينيمبوم، لذلك لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعلك تقتل طبيب البلدة. مع أن .... ما علاقتك بالآنسة تينيمبوم؟»

كان على راميرو أن يمسك نفسه لكي لا يقفز من على الكرسي. أحسّ بعضلاته تتقلص تحته. قال لنفسه لعل سلكاً قد جرح مؤخرته.

Arab_Books

«إننا أصدقاء، أصدقاء الأسرة. عندما غادرت إل تشاكو، كانت فتاة صغيرة جداً، ولم أرها ثانية إلا ليلة البارحة».

«إنها جميلة جداً، أليس كذلك؟» كان ألميرون يرمقه، رافعاً أحد حاجبيه. لم يكن يبتسم، لكنه بدا لراميرو أنه يبتسم.

«نعم، إنها جميلة جداً».

Arab_Books

١٦

مرة أخرى، حدّق أحدهما بالآخر لبضع ثوان، حتى لام راميرو نفسه. من الغباء أن يتصرف بمثل هذه الشجاعة. يجب أن يبدو طبيعياً، لكنه لم يكن يستطيع. فقط لم يكن يستطيع. على الأقل، قال لنفسه ناصحاً، بأن يتصرّف وكأنه يبدو منزعجاً. لفّ ساقاً على ساق، وأسند ظهره إلى الكرسي.

«يوجد شخص يريد أن يحدثك»، قال ألميرون، واستوى واقفاً، ونادى الرجل المربوع القامة. أبدى إشارة برأسه، فهمها الآخر. فغادر، وهو يكاد يجري. شعر راميرو بالذعر. بدأ قلبه يخفق بشدة.

بعد قليل، جاء رجل نحيف جداً، أنحف من ألميرون، متوسط الطول. لا بد أنه في حوالى الخمسين من العمر. كان يرتدي بنطالاً كتّانياً بلون القشدة، وقميصاً مقلماً بالأبيض والأزرق الفاتح، مكوياً بعناية شديدة، ويلفّ حول رقبته وشاحاً حريرياً. كان أسمر البشرة، واحداً من الذين يحيون حياة مرفّهة، ويعلو شفته العليا البارزة شارب صغير تتخلله بضع شعرات رمادية تلائم سالفيه. وكان يضع في بنصره الأيسر خاتماً ضخماً من الذهب الخالص.

Arab_Books

جلس فوق الطاولة وبدأ يؤرجح إحدى ساقيه إلى الأمام والوراء. غطرسته وثقته الشديدة جعلتا راميرو يقول لنفسه لا بد أن يكون هذا الرجل عسكرياً.

«هل تعرف من أنا؟»

«لم أحظَ بهذا الشرف».

«أنا المقدّم ألسديس كارلوس غامبوا بوشيت».

رفع راميرو أحد حاجبيه.

«هل يعني ذلك شيئاً بالنسبة لك؟»

«لا، لا أعرف».

«بالطبع، إنك جديد، لقد عدتَ من الخارج للتو. أنا قائد الشرطة في الولاية».

كان يبدو أن الرجل مفتون بنفسه.

«يسرني لقاؤك»، قال راميرو.

هزّ الرجل رأسه عدّة مرات، ثمّ دفع شفتيه إلى الأمام وهو يمسّد ذقنه.

«إنك في ورطة كبيرة يا سيد بيرناريديز».

«لقد أدركت ذلك، لكن ماذا تريدني أن أفعل. فقد قلت ما عليّ قوله مرّتين، ويبدو أن المفتش ألميرون لا يصدقني».

«ليست هذه هي المشكلة»، قال الرجل العسكري، بنبرة ودّية، مألوفة، ثم أطلق زفرة وقال: «سأكون صريحاً جداً معك: إننا نعرف أنكَ قتلتَ الدكتور تينيمبوم. وقد يستغرق إثبات ذلك بعض الوقت، لكن ما هذا إلا الجزء البسيط من المسألة. انظر، لو أرادت الشرطة أن تثبت شيئاً، فإنها تثبته وينتهي الأمر، أتفهم؟

Arab_Books

هذا البلد ليس فرنسا، يا سيد بيرناردیز. لا، فهذا البلد في حالة حرب، حرب داخلية، لكنها حرب في جميع الأحوال. هل أنا واضح في ما أقوله؟ أريد أن يفهم أحدنا الآخر».

«لم أقتل أحداً».

«عزيزي السيد بيرناردیز، عندما أقول إنني أريد أن يفهم أحدنا الآخر، فإني أقصد أننا نعرف جيداً أنك قتلت تينيمبوم. إننا لا نفترض ذلك. إن دوافعك لارتكاب الجريمة لم تتضح بعد، لكني سأكون صريحاً معك، فأنا لست متحمساً لاكتشاف ذلك. فلو أردنا إجبارك على التكلّم حقاً. . .» توقّف قليلاً ثم أردف، «يجب أن تعرف أننا نستطيع ذلك. فلدينا وسائلنا. . . إيه؟»

أحس راميرو برعشة باردة تسري في ظهره. تذكّر الاتهامات الموجهة إلى الأشخاص في المنفى التي سمع وقرأ عنها في باريس. لم يكن يصدّق تماماً الأعمال الوحشية التي كانوا يصفونها. محصوراً في الزاوية، قرّر أن يجازف بالأمر برمته.

«هل ستعذّبني، يا سيادة المقدّم؟ كنت أظن أن هذه الوسائل مخصصة للمتمردين فقط، أو الذين تعتبرونهم مخربين».

«سأقولها بطريقة أخرى، لكن هذه ليست مسألة يمكنني أن أناقشها معك. إن ما أريد قوله هو. . .» تردّد لحظة، ثم أضاف، «من المؤسف أن شخصاً مثلك متورط في هذه الجريمة».

«لماذا شخص مثلي؟»

«لأننا كنّا نتوقّع الكثير منك. فلا يوجد عدد كاف من الرجال المتعلّمين الذين لم يتلوّثوا فكرياً».

«ماذا تقصد؟»

Arab_Books

«مرة أخرى، سأكون واضحاً معك يا سيّد بيرناردیز: فإنك لن تقبل للتدريس في الجامعة بسبب شهاداتك ودرجة تعليمك فقط. وبما أن القوات المسلّحة هي التي تدير شؤون البلاد، فلا يمكن أن يتم ذلك من دون موافقتنا. فأنت من ذلك النوع الذي أدعوه الرجل الاحتياطي، أي شخص ذو أهمية كبيرة بالنسبة لنا ونحن نخضعه للفحص والدراسة، وحتى هذه اللحظة، فإن سجلّك نظيف تماماً. هل تفهم ما أقوله؟ وهذه... لنقلها بصراحة، جريمة القتل هذه تغلّف كلّ شيء. لذلك أريدك أن تفهمني جيداً، وسأقولها لك بلطف: إذا اعترفت، يمكننا عندئذ أن نساعدك».

«لا أظن أنني أفهم ما تلمح إليه، حتى لو كنت أنا القاتل»، وبذل راميرو جهداً لكي لا يضم قبضتيه، وأن لا يتمسك بالكرسي. اعتراه الرعب.

«أقول إنك إذا اعترفت فقد نستطيع أن نسوّي الأمور، نخفف من حدة الأمور بقدر الإمكان»، وأكّد على «بقدر الإمكان»، وأضاف، «لا أظن أنك تتخيّل أن قائد الشرطة يأتي ويتحدث مع مشتبه به في كلّ جريمة صغيرة تقع هنا، لكن يمكنك أن تتصوّر أنّ لديّ أموراً أخرى يجب أن أعتني بها ذات طبيعة سياسية ولها مصلحة وطنية. لذلك، فإذا أتيت لمقابلتك، فهذا يعني أنك موضع اهتمام بالنسبة لنا وأنني أستطيع مساعدتك. فلست الشخص السكران الذي نهتم بأمره. أريد أن أساعدك. هل تفهم؟»

«إني لم أقتل أحداً».

«اذهب إلى الجحيم يا بيرناردیز»، قال وعدّل الوشاح على رقبته، «كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تعترف وستخرج نظيفاً. إني

Arab_Books

سأتدبر الأمر، وبعدها سنتكلّم، لأننا مشغولون بعملية طويلة الأجل، هل تفهم، عملية سيكون فيها المخربون هم العدو الحقيقي، الشيوعية الدولية، الجريمة المنظمة في أنحاء العالم. إننا نهدف إلى القضاء على الإرهاب لكي نقيم مجتمعاً جديداً. وإذا طلبت منك أن تعترف، فذلك لأننا يجب أن نتعامل مع أيّ جريمة تقع، مهما كانت دوافعها، ولأننا نريد أن نبني مجتمعاً يقوم على النظام. لكن بسبب النظام، لا يمكننا أن نسمح لأحد أن يرتكب جريمة قتل، ولاسيما شخص قد يكون صديقاً لنا. هل تفهمني؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن جريمة القتل تعني عدم احترام الحياة، إنها اعتداء على الحياة، ويجب أن تكون الحياة والممتلكات مقدّسة مثل الله نفسه».

«لكني لم أقتل تينيمبوم. كما أنني لست واثقاً من أنني سأتعاون معكم».

«سندرس الأمر، لأننا الآن في هذا البلد، إمّا أن تكون معنا أو تكون ضدّنا. لا يوجد مكان وسط».

صمت راميرو. مسّد غامبوا بوشيتي شاربه بكلتا يديه، مستخدماً يداً في كلّ طرف. ثمّ أخرج من جيبه منديلاً معطّراً، تفوح منه رائحة الخزامى، وجفف جبينه؛ ثمّ بدأ يتكلم ثانية، بنبرة ودّية هذه المرة:

«انظر، المسألة الآن هي أن تعترف بمحض إرادتك، ويمكننا أن نرتّب الأمور بأفضل طريقة ممكنة. من الواضح أننا لا نريدك أن تلطخ سجلّك».

كان راميرو يتوق ليسأل ماذا سيحدث إذا لم يفعل ذلك، أي

Arab_Books

إذا لم يعترف، لكن ذلك يعني أنه يسلّم نفسه. كان مندهشاً من خطاب ذلك الرجل الساحر اللطيف، لكن الشعور الرئيسي الذي كان يتملكه هو الخوف، وعلى نحو غريب، كان الصمت أفضل مساعد له. ومرة أخرى، قال لنفسه إنهم لا يستطيعون أن يثبتوا شيئاً ضده. فما داموا لم يجدوا دافعاً، بمعنى آخر، ما داموا لم يكتشفوا ما حدث بينه وبين آراسيلي، فإنهم لن يتمكنوا من إثبات تهمة القتل. ربما كان هو آخر شخص في إل تشاكو يمكن أن تكون لديه أسباب لقتل تينيمبوم. وبطبيعة الحال، فإنه سيتحدث لاحقاً مع الفتاة عن ضرورة توخي الحذر، لكن هذا موضوع آخر. بالإضافة إلى ذلك، فمع أنها أثارته حتى أفقدته عقله، لم يكن واثقاً إذا كان يريد أن يواصل علاقته معها. لكنه سيقرر كلّ شيء في ما بعد. أما الآن، فإنه سيواصل إنكار ذلك، على الرغم من أن غامبوا بوشيتي كان واضحاً في تهديده لتعريضه للتعذيب.

«ما قولك؟» سأله الرجل العسكري.

«لا أعرف عمّا تريدني أن أخبرك أيها المقدّم».

«هل ستعترف؟»

«لا يوجد لديّ ما أعترف به».

فقال، وقد بدا أنه مستمتع بالأمر: «إنك عنيد، إيه، لكن لدينا أوراق أخرى يمكننا اللعب بها يا بيرناردیز. وليست فقط تلك الأشياء التي قد تتخيّلها. يمكنك أن تنتظر... لدينا سائق شاحنة مثلاً...».

Arab_Books

١٧

مرة أخرى أحسّ راميرو بانقباض في عضلاته تحته، وبدا أن قلبه سيتوقّف عن الخفقان. ولمّا كان في حالة شديدة من التوتر، قال لنفسه إنه لن يكون أشدّ توتراً بعد هذه الضربة التي وجهها له هذا الرجل العسكري. ولا بد أن نسبة الأدرينالين في جسمه قد ارتفعت في تلك اللحظة إلى أقصى درجة. أحسّ بأنه أصبح مشلولاً، وحاول أن يحبس أنفاسه عندما أشار غامبوا لإحضار الشاهد.

دخل سائق الشاحنة المكتب يتبعه ألميرون. كان الرجل أقصر، لكنه كان قوياً تكسو ذراعيه عضلات كما تذكّره راميرو. كانت ذراعاه ضخمتين، وكان الوشم على إحدى ذراعيه صورة قلب نقشت عليه الحروف الأولى لاسم ما. كان يرتدي قميصاً من الكتّان الخشن بكمّين قصيرين، وبنطلون جينز مهترئاً، وينتعل حذاء رياضياً؛ وكان يحمل بيده قبعة مصنوعة من قماش لا ينفذ منه الماء، وضعت ريشة صغيرة على أحد طرفيها، بدت مضحكة في ليلة الصيف الحارة هذه. كان خائفاً. يمكنك القول إنه كان مرعوباً لوجوده في مركز الشرطة.

«مساء الخير»، قال بصوت متكلف.

Arab_Books

قال غامبوا الذي كان لا يزال جالساً على الطاولة، والذي كان يؤرجح ساقه إلى الأمام والوراء:

«هل تعرف هذا الرجل؟»، مشيراً إلى راميرو.

رفع الرجل القبعة الصغيرة التي كان يعتمرها ووضعها فوق بطنه. هزّ كتفيه قليلاً ونظر إلى راميرو، وراح يتفحصه. نظر إليه راميرو أيضاً، وقال لنفسه لقد ضاع كلّ شيء. إني لا أزال في اللعبة. رفع ذقنه بكبرياء شخص واثق بنفسه، واثقاً من أنه بمظهره الجامعي، وثيابه النظيفة، وهيئته الجيدة، يستطيع أن يخيف سائق الشاحنة.

«لست متأكّداً»

«انهض»، أمر غامبوا راميرو بنبرة حادة. فاستوى راميرو واقفاً.

«امشِ حول الطاولة».

نفذ راميرو ما طلبه منه. التفت غامبوا إلى سائق الشاحنة ثانية.

«إذاً، هل تعرفه؟»

«إنه يشبهه، يا سيدي، لكن... في الحقيقة فأنا لست متأكّداً. كان الظلام دامساً ولم أدقق في ملامحه جيداً».

«لكنه ألم يكن جالساً بجانبك لفترة من الوقت؟ إن قولك إنه يشبهه لا يفيدنا بشيء. قل لي هل هو الشخص أم لا؟»

كان سائق الشاحنة يبدو مرعوباً مثل راميرو. ولم يتوقّف عن العبث بقبعته الصغيرة على نحو مسعور. مرّر لسانه فوق شفتيه.

Arab_Books

«ربما إذا تكلّم الرجل. . .»

«قل شيئاً»، قال غامبوا آمراً راميرو.

«لا أعرف ماذا تريد أن أقول، يا سيادة المقدّم»، قال راميرو مختاراً كلماته ولفظه بدقّة، على نحو أكاديمي تقريباً، «فأنا لم أر هذا الرجل قط، ولا أعرف ماذا تحاول أن تفعله».

عندما أنهى كلامه، أحسّ بالزهو لقوله ذلك.

«إذاً؟» ضغط غامبوا على سائق الشاحنة.

«لا يا سيدي، كان الشخص الذي نقلته من باراغواي، وهذا الرجل يشبهه، لكنّه لا يتكلم بالطريقة نفسها».

«يستطيع أي شخص أن يقلّد اللكنة الباراغواية»، تدخّل ألميرون قائلاً من وراء سائق الشاحنة، الذي التفت، خائفاً، كأنه سمع صوت الله.

«انس كيف يتكلّم»، قال غامبوا، محدّقاً في الرجل ببرود، «هل تقول إنه الشخص نفسه الذي أوصلته أم لا؟»

«حسناً. . . أظن أن هذا الرجل كان من نوع مختلف. . .»

«من الممكن أن يكون وسخاً ومتعباً»، قال ألميرون، «ببساطة يجب أن تخبرنا هل تعرفه أم لا. ولا تخف يا صديقي، فالحقيقة لا تؤذي».

بدا الامتنان في عيني الرجل.

«هل هو الشخص أم لا؟» أشار غامبوا بسبابته ولوّح بها إلى الأعلى والأسفل.

«مممم. . . أظن أنه هو، يا سيدي».

Arab_Books

«شكراً»، قال غامبوا وابتسم، راضياً، «أخرجه من هنا يا ألميرون».

غادر الرجلان، وأشعل غامبوا سيجارة. استوى واقفاً وراح يدور حول راميرو ثم توقف خلفه.

«لقد انتهى أمرك يا بيرناردیز».

Arab_Books

١٨

ثمّ تركاه وحده، وسمع غامبوا يعطي أوامر بأن تؤخذ منه إفادة رسمية في الصباح، وأن يعاد استجواب ألميرون. ثم حدّث الحارس المربوع القامة باقتضاب شرطياً يرتدي بدلة رسمية، فدخل وأخذه، ثم اقتاده بصمت وبلا مبالاة، إلى مكتب الحراسة، حيث أخذ منه حارس ثالث معلومات، وأخذ أوراقه الثبوتية ووضعها في درج. ثمّ، نزعوا منه ساعته وحزامه ورباط حذائه. وتعين عليه أيضاً أن يترك محفظته. وأخيراً، فتشوا جيوبه فوجدوها فارغة.

عادوا إلى الجزء الداخلي للمبنى، وبعد اجتيازهم أحد الأبواب، اقتادوه إلى قبو تفوح منه رائحة كريهة فيه اثنتا عشرة زنزانة. فتح الشرطي إحداها، وبإيماءة برأسه، أشار إليه بأن يدخل. ثمّ أغلق الباب المصنوع من فولاذ سميك الذي توجد في جزئه العلوي فتحة مربّعة الشكل. أحدث ذلك جلبة كثيرة.

خلال هذه العملية، أدرك راميرو ثانية خوفه وتعبه الشديدين. وعلى الرغم من ادعاء قائد الشرطة، قال لنفسه إنه يجب ألاّ يخشى كثيراً من إفادة سائق الشاحنة، لأنها لن تكون سارية في المحكمة. فمن الواضح أن سائق الشاحنة كان مذعوراً، وأن غامبوا قد تعمّد

Arab_Books

إخافته. فإذا طلبوا منه أن يقسم على الكتاب المقدس أمام قاض نزيه نوعاً ما، فإن الرجل سيعبّر عن شكوكه. وسيتهاوى اعتقاده بأنه نقل شخصاً باراغواياً، يشبه في جميع الأحوال، المتّهم. لكن ما كان يثير قلقه حقاً هو التهديد المستتر الذي هدده به غامبوا. ولم يصدّق، ولم يرد أن يصدّق، أنهم سيعذّبونه، لكنّه كان يذكّر نفسه دائماً بأنه يعيش في إل تشاكو، بالأرجنتين في عام ١٩٧٧، وإن كان ثمة شيء غير موجود فهو الضمانات، «لا تظنّ أننا في فرنسا، يا سيد بيرناردیز»، قال له غامبوا.

كان يعرفها جيداً، وكان قد آثر أن يعود إليها في جميع الأحوال، بدافع الحنين الذي لا يمكن تفسيره والذي كان يتملكه منذ ثماني سنوات، وفرصة البدء في التدريس في جامعة يونيفيرسيداد ديل نوردست؛ وربما، على الرغم من أنه لم يكن متأكّداً، لأنه كان يعرف أنه، باختصاصه وخبرته، لن يصعب عليه الارتقاء إلى منصب سياسي مرموق. كان غامبوا محقّاً، سواء أحبّ الإقرار بالأمر أم لم يحبّ، فقد أصبحت توقعاته ومستقبله بأن يتبوأ مكانته في المجتمع عرضة للخطر الآن، بسبب هذه القضية. بالطبع، قال لنفسه، من المستحيل أن يستسلم لإغواء الاعتراف. هنّأ نفسه على ذلك. فأيّ وعد يمكن أن يقطعه رجل مشكوك في أمره ولا يمكن الوثوق به.

كانت الزنزانة مقززة. خمّن أن مساحتها متران بمترين تقريباً. كانت الأرضية الإسمنتية مبللة، وقال قد يكون هذا البلل بولاً بسبب رائحة النشادر اللاذعة المنبعثة منه. لم يكن أمامه إلاّ أن يجلس في إحدى زاويا الزنزانة التي رأى أنها أكثر جفافاً قليلاً. بدا

Arab_Books

السقف عالياً جداً. لم تكن توجد فيها نوافذ، وتسرّب شعاع باهت من الضوء من ثقب الباب. كانت العتمة منيعة، وعلى الرغم من أن القبو بدا بارداً عندما نزل إليه في البداية، فإنه أحسّ في الحال بحرارة لزجة ثقيلة. سيصعب عليه أن ينام بالرغم من شعوره بالإعياء. كانت ليلة ثانية من التوتّر، والإحساس بأنه ملاحق، مطارد.

وفجأة تناهى إليه صوت ضوضاء شديدة، صوت موسيقى تشبه موسيقى رقصة البولكا. كان يبدو أنه منبعث من مذياع رفع صوته إلى أعلى حد. ثم انطلق صوت أكورديون من المذياع الذي لم يكن معيّراً بشكل جيد، وراح ثنائي يغنّيان عن الحبّ الضائع في وسط أشجار النخيل المحاطة بمساحات شاسعة من الرمل. تململ راميرو بقلق، وغضب من نفسه لكلّ ما يحدث. فلم يعرف كيف يكون حذراً، بارد الأعصاب. لماذا لم يسيطر على نفسه؟ كيف يمكن أن يتحول إلى مغتصب وقاتل بسبب غضبه؟ اعترف أنه كان ساخطاً، يشعر بالمرارة، غاضباً، وراح يضرب الحائط، الذي أجابه بصوت مكتوم حادّ وبألم حادّ في يده. «إنها جميلة جداً، جميلة بطريقة شيطانية»، قال لنفسه، مفكّراً في آراسيلي. هل يمكن لأحد مثله أن يفقد عقله هكذا؟ نعم، من الممكن. وفي كلّ مرّة، كان يسأل نفسه عن ذلك، كان يعترف بأن هذه الفتاة هي الشيطان مجسداً، ميفيستوفيليس(*) خُلق ثانية جاء ليهدم حياتي. ابتسم في العتمة، لكنها كانت ابتسامة حزينة، مثيرة للشفقة.

(*) الشيطان في مسرحية فاوست التي باع فيها بطل المسرحية «فاوست» روحه للشيطان مقابل حصوله على معرفة مطلقة.

Arab_Books

ثمّ تلاشى صوت المذياع، الذي انبعثت منه الألحان الراقصة لفترة طويلة بالإضافة إلى الإعلانات التجارية. وخيّل إلى راميرو أنه سمع صوت أنين من بعيد في وسط الصمت الذي عاد وخيّم على المكان. ثمّ عاد ثانية صوت المذياع الذي أصمّ السكون الآن بمعزوفة تشارلي غارسيا التي تذكّر بأن تكون وحيداً. وسمع أيضاً صوت شخير حادّ لسجين آخر، يبدو أنه موجود في الزنزانة المجاورة.

وفي لحظة ما، على الرغم من الموسيقى والحرارة والرطوبة، غطّ في نوم عميق، إلى أن أيقظه صوت المفتش ألميرون المتسلل من ثقب الباب.

لم يعرف راميرو المدة التي نام فيها، مع أنها بدت له قصيرة جداً: كان الظلام دامساً. لقد فقد الإحساس بالزمن في تلك الزنزانة، وشعر بالتعب كما لو كان يعمل طوال الليل ولم ينم خلال تلك المدة، وبطريقة ما، كان الأمر يشبه ذلك.

«ماذا تريد الآن؟» سأل باتّجاه ثقب الباب.

«تعال، تعال إلى هنا».

نهض راميرو. أحسّ بالخدر. كانت عظامه تؤلمه، وشعر بالرطوبة، والقذارة، والارتعاش. كان الجو شديد الحرارة. توجّه نحو الباب.

«ماذا في الأمر؟»

«ستخرج. لكن في البداية، أريد أن أقول لك بعض الأمور».

«لماذا سأخرج؟ هل غيّرتم رأيكم؟ أم هل وجدتم القاتل؟»

«لا تهرّج. أنت هو القاتل. لا يوجد عندي أدنى شكّ في

Arab_Books

ذلك، بل إني أعتقد أنني أصبحت أعرف السبب الذي جعلك تفعل ذلك»، ضحك ألميرون وهو يفتح الباب، «وحتى أنني أظن أنني أحسدك بطريقة ما».

غادر راميرو، زامّاً عينيه بشكّ. ابن العاهرة، قال لنفسه، يجب أن أحترس، أن أكون يقظاً. ومرة أخرى، اعتراه هذا الخوف الذي سبّبه ذلك الوضع الشريّر الذي ورّط نفسه فيه.

كان الخارج أكثر إنارة. بدا له أن النهار قد طلع. سأل كم الساعة. فأجاب ألميرون أنها السابعة والنصف، وسأله كيف يشعر.

«مثل الخراء. لقد أفسدوا الليلة بصوت المذياع».

«حسناً، لدى هؤلاء الرجال أمور كثيرة يفعلونها».

سأل راميرو هل بإمكانه أن يذهب إلى الحمام. قاده ألميرون نحو باب في نهاية الممر قبالة جميع الزنزانات. انتظره هناك حتى انتهى من استخدام المبولة، ثم غسل وجهه ويديه، وبلّل شعره. وعندما استدار ليغادر، كان ألميرون يبتسم. قدم له سيجارة، فقبلها راميرو.

«ما المضحك في ذلك؟»

«إنك إعجوبة».

قالها بنبرة مسلّية. انتبه راميرو إلى وجود شيء من الصدق في السخرية، شعور بالإعجاب.

«لماذا؟»

«قلت إن أمّك يمكنها أن تثبت أنك عدت إلى البيت في الساعة الرابعة في الليلة قبل الماضية، أليس كذلك؟»

Arab_Books

لم يثق به راميرو. تصلّب عموده الفقري.

«صحيح»، قال، ببطء، وبحذر.

«في جميع الأحوال، قالت الآنسة تينيمبوم إنك أمضيت الليلة التي وقعت فيها الجريمة كلها معها. في سريرها».

فتح راميرو فمه، مسمّراً فجأة. نظر إلى ألميرون دون أن يراه، مدركاً أنه لن يقول شيئاً: ارتخى حنكه.

«لهذا السبب قلت لك إني أحسدك»، قال ألميرون، بطريقة ودّية وساخرة، «إنكَ إعجوبة. لكن بالنسبة لي، فإنك لا تزال في وضع خرائي وفي وضع حقير».

أصبح جدّياً وتجمّدت عيناه.

«لكن...»، أصبح راميرو يقظاً، شاعراً بفخّ ينصب له، «لكن رجال الشرطة الذين أوقفونا أكّدوا أنهم رأوني مع تينيمبوم بعد الساعة الثالثة بقليل».

«هذا صحيح. لكنها تقول إنك عدت إلى غرفتها، وإنكما رأيتما معاً تينيمبوم وهو في حالة سكر شديدة، مغادراً بسيارة الفورد. بالطبع، إننا لا نصدق أي كلمة قالتها، لكنّها إفادة... في الوقت الراهن، لقد أفلتَّ من الصنارة».

«في الوقت الراهن؟»

«بالتأكيد»، قال ألميرون ببرود، بشكل مميت، «لأنّ لديّ إحساساً بأننا سنلتقي ثانية. هيا اخرج».

Arab_Books

١٩

في المكتب أعادوا إليه كلّ الأشياء التي أخذوها منه، والتي تناولها مثل إنسان آلي. رافقه ألميرون إلى الباب، ونظر أحدهما إلى الآخر لثوان. كان يبدو أن الضابط يقول له، بتلك العينين الباردتين نفسيهما، بأنه يجب ألاّ يظن أن القضية قد انتهت. شعر راميرو بأن لا شيء أصبح يهم، فقد كان يشعر بالإعياء.

كان جالساً على مقعد خشبي أبيض طويل في الرواق، مسنداً ظهره إلى الجدار، حيث كانت أمّه وكارمن، المرأتان المتشحتان بالسواد، صامتتين وتبكيان. وكان يجلس إلى جانبهما جيم بارتولوتسي، المحامي الصديق الذي كان زميله في المدرسة الثانوية، يلفّ ساقاً على ساق، ويدخّن بلا مبالاة، لكن بشيء من الحذر، مرتدياً بدلة أمير ويلز من البوبلين. وكانت آراسيلي تقف بالقرب من النافذة المطلة على الشارع، مرتدية بنطال جينز ضيّقاً وقميصاً أخضر بردنين قصيرين يحضن صدرها المتبرعم، ترتسم على وجهها نظرة متعبة، تراقب باب مكتب الحراسة، مسبلة ذراعيها، ويداها معقودتان فوق انفراجة ساقيها.

عندما رأته خارجاً، بدا أنها أفاقت. جرت نحوه وطوّقته بيديها حول رقبته، وقبّلته، وقالت: «حبيبي، حبيبي»، بصوت

Arab_Books

مرتفع بدا أن صداه بدأ يتردد بصوت عال في البهو.

ظل راميرو متصلّباً، محرجاً. بدأت كارمن تبكي بطريقة هستيرية، وتمخط في منديل، ووثب جيم واقفاً ، كأن نابضاً قذفه. توجهت نحوه ماريا، وقالت وهي تهزّ رأسها:

«ماذا فعلت يا راميرو؟»... قالت نادبة.

في هذه الأثناء، أرخت آراسيلي ذراعيها وأفلتتهما من حول رقبته، وأمسكته من ذراعه وقالت له بنفس الصوت المرتفع، الآمن:

«لقد أخبرتهم الحقيقة كلها، يا حبيبي، بأنك كنت معي طوال الليلة، وأن كلاً منا يحبّ الآخر».

حافظ راميرو على هدوئه، وتنهّد بعمق. عندما غادروا، كان يعرف أن ألميرون يراقبه من مكان ما، وبدا أنه يتذكّر على نحو غامض - أو يسمع - صوت موسيقى رقصة البولكا.

Arab_Books

الفصل الرابع

وما لا تعرفه هو الشيء الوحيد الذي تعرفه
وما تملكه هو الشيء الذي لا تملكه
والمكان الذي أنت فيه هو المكان الذي لست فيه.

– ت. س. إليوت، «الرباعيات الأربع»

٢٠

أمضى اليوم كله راقداً في السرير. منحته الضوضاء المنبعثة من المروحة شعوراً بأنه في حالة جيدة، لكن النعاس كان يهزمه. غطّ في النوم. رأى كوابيس، واستيقظ مرات عديدة. لم يشأ أن ينهض في منتصف النهار ليتناول الطعام. استيقظ في الساعة الثالثة والنصف عصراً، ومرة أخرى في الخامسة، وفي كلّ مرة، كان يقرّر أن ينام ثانية.

عند الغروب، أشعل سيجارة وهو يراقب ضوء النهار يتلاشى على الجانب الآخر من الستائر المعدنية.

تملّكه شعور بالاكتئاب. لقد نجا الآن، نعم، لكنّه تذكّر تحذير ألميرون، «لا تزال في وضع خرائي»، وهو محقّ. فكلّ شيء ضده: فهو أولاً محاصر من قبل آراسيلي التي لم يكن يحبّها

Arab_Books

- حاشى لله - وثانياً، لم يتفاد الفضيحة، لأن صحيفة ذلك الصباح - التي قرأها قبل أن يخلد إلى النوم - ربطته باحتمال مقتل تينيمبوم. فقد أولت صحيفتا إلتريتوريو ونورت، وهما الصحيفتان المحليتان، هذه القضية اهتماماً كبيراً. إذ لم تقع جرائم مدوّية في إل تشاكو قبل الآن، لذلك شكّلت هذه الجريمة حدثاً هاماً لهما. ومن المتوقع أن يظهر اسمه ثانية في اليوم التالي، ومن غير المستبعد أن لا توردا اسمه. وكيف ستوضحان أنه ليس جزءاً من القضية؟ وماذا سيقول غامبوا وألميرون؟ البارحة فقط أكّدا للجميع بأنهما لم يكونا يسيران في المسار الصحيح، وأنهما سيلقيان القبض، في أيّ لحظة، على القاتل. أي قاتل سيقدمونه للصحافة؟ فقد استبعدا أمام الصحفيين أيضاً إمكانية أن يكون ذلك مجرد حادث، واستبعدا أكثر بكثير أن يكون، حادث انتحار. لم توجّه إليه تهمة جدّية، لكن اسمه كان، في حقيقة الأمر، متورّطاً. لم يعد بالإمكان إيقاف قدر معين من الفضيحة الآن، ولن تعدم ريسيستينسيا الكلمات في قضية كهذه.

ثالثاً، على الرغم من أنه قد يتمكن من الإفلات من هذه القضية، فمن الممكن أن تصدقها سلطات الجامعة. فلم يعد بإمكانه تجاهل أن تعيينه في الجامعة أصبح في مهب الريح. كلّ هذا لأنه لم يتعاون مع غامبوا بوشيتي، بل على العكس، فقد كان غامبوا واضحاً: «لن تحصل على منصب في الجامعة على الرغم من دراستك وشهاداتك». ماذا سيقول قائد الشرطة للصحفيين اليوم؟ إنهم كانوا مخطئين؟ إن ذلك كان وهماً. ومن الطبيعي أنهم لن يقدموا نسخة آراسيلي للصحافة، لأنها تتناول فتاة قاصر وستبدو

Arab_Books

الشرطة في مظهر أحمق. لكن هذا المقدّم الرهيب قادر على عمل كلّ شيء.

كما أنه لا يستطيع الهرب. عد إلى باريس؟ مستحيل: فهو لا يملك نقوداً. وحتى لو كان يملك نقوداً، فإن غامبوا وألميرون سيطلبان من الشرطة الاتحادية ملاحقته في بوينس آيرس، وسيتدخّلان من أجل عدم تجديد جواز سفره. وفرنسا ليست بلداً مجاوراً. لكن الأهم من كل شيء، كان من الواضح، ما دام لا يوجد لديهم قاتل - ولا يمكنهم إيجاد قاتل - أن العيون ستظل مركزة عليه. فقد قالها ذلك الرجل: إن كلّ شيء تحت السيطرة.

وآراسيلي؟ لماذا فعلت كلّ ذلك؟ إن هذه الفتاة مجنونة. إنها شكل من أشكال ميفيستوفيليس، حقاً، وهذا ليس بالأمر المضحك. لماذا أنقذته بذلك الادعاء الراسخ إن لم تكن تعرف أنه هو الذي قتل والدها؟ هل هذه الفتاة وحش؟ هل هي مجنونة أم وحش، تساءل، ويجب أن يخشاها ويحذرها لأنها أوقعته في الفخ. ومن الواضح أنها تعرف كلّ شيء، وها هي الآن تنقذه، نعم، لكنه لا يستطيع أن يثق بها. في الواقع، لقد وقع في الشرك. ماذا لو أنها فعلت كلّ ذلك لمجرد الانتقام لموت أبيها والاغتصاب الذي كانت ضحيته؟ هل يمكن أن . . . لكنها كيف ستنتقم؟ ماذا ستفعل له؟ تقتله؟ حسناً، أصبح يعرف الآن أن آراسيلي قادرة على عمل كلّ الأشياء التي لا يمكن التنبؤ بها. لقد هلك الدكتور فاوست.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد أنها تكرهه. نعم، مهما كانت فاسقة، أو شهوانية، أو نهمة، فلا بد أنها تكرهه. لكن لا، ليس

Arab_Books

الأمر كذلك. لأنه لو كان ذلك صحيحاً، فهل كانت ستضاجعه بهذه الطريقة القاسية الوحشية، وهل كانت ترغب بقوة أن يمتلكها وينالها مرات ومرات؟ وماذا لو كانت تحبّه؟ إنها مجنونة. لم يكن يفهمها. هذا هو الشيء الوحيد الأكيد عنها. إنه أمر لا يصدق: فتاة مراهقة، لا تعدو أن تكون فتاة أكبر من عمرها، أفسدها الدلال وهي في هذا العمر، وقد وقع في حبائلها الآن، ولم يعد أمامه من سبيل ينفذ منه. لقد وقع في الشرك.

يا إلهي، إنها فكرة بغيضة، فكرة سخيفة. فهو لا يزال في ريعان الشباب، ومع أنه كان لا يزال يحبّ دورين، تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة الفاتنة من فينسين، فإنه لم يكن غير سعيد لكونه عازباً، أو لمكانته الاجتماعية في مدينته حيث كان معروفاً، بل محترماً. لا، بالطبع، لم يكن يرغب في الزواج، خاصة الزواج من تلك الفتاة الصغيرة الرهيبة. نعم، فقد أثارته إلى درجة تفوق كل شيء، أثارته حتى فقد السيطرة على نفسه، وكانت مضاجعتها رائعة. ولم ير في حياته كلها امرأة لاهبة مثلها، لكن... لكنها لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة! إنه أمر سخيف. إن آراسيلي فتاة نهمة، وهي لا تزال في بدايتها! يا إلهي، إنها ستصبح عاهرة حقيقية وسأصبح ديوثاً طوال حياتي. تقلّب في سريره، تنهّد. ديوث بائس، هذا كلّ ما الأمر.

لا، لن يتزوّج. نقطة انتهى.

لكنه لم يتمكن من إيجاد منفذ. أحسّ بأنه مثل قطّة لابدة وراء ثلاجة، ملاحق ومذعور.

نعم، كان لا يزال في وضع لا يحسد عليه.

Arab_Books

٢١

في الساعة الثامنة والنصف مساء، خابرته آراسيلي. كانت في بيت أحد الأصدقاء في ريسيستينسيا وأرادت أن يوصلها إلى فونتانا. عندما فكّر راميرو في الأمر بعد ذلك، لم يكن متأكداً هل كانت نبرة صوتها ملحاحة، لكنه لم يشعر بوجود حزم فيها. لا، لم يكن في صوتها إلحاح، بل كان فيه حزم وثبات. لم يكن يرغب في أن يراها في تلك الليلة، لكن صوت آراسيلي كان ملحاحاً.

كان صديق كريستينا في البيت. فتى له وجنتان ممتلئتان ويضع نظارات ذات إطار معدني. كان حسير النظر، ولم يستطع أن يرفض طلب راميرو أن يعيره سيارته. لم يكن يريد أن يفعل ذلك أيضاً، أن يستعير سيارة أخرى، لكنه لم يتمكن من تفادي ذلك. فقد طلبت منه آراسيلي أن يأخذها وقرر أن يفعل ذلك، وقال لنفسه إن الأمر بسيط عندما شغّل سيارة الفيات الصغيرة ٦٠٠. يا لي من أحمق.

كان البيت يبعد خمس عشرة بناية في جادة سارمينتو. أطلق راميرو زمور السيارة المرتفع والحاد، فخرجت آراسيلي. كانت جميلة حقاً، ترتدي تنورة جينز، وقميصاً ذا نقوش مربعة، وقد

Arab_Books

فتح زرّ في وسطه، بين نهديها. كانت تنتعل صندلاً جلدياً بكعب واطئ، وكان شعرها الأسود الطويل ينسدل على كتفيها فجعلها تبدو فتاة صغيرة لعوب. عندما رآها راميرو تتجه نحو السيارة بذلك الغنج الطبيعي، وهي تتثنى في مشيتها، لم يتمالك نفسه من أن يعضّ شفتيه. كانت آراسيلي رائعة حقاً، صغيرة ونضرة مثل حبة الفريز في مزارع كورواندا في سانتا في.

ما إن أغلقت باب السيارة حتى شغّل المحرك. قبّلته قبلة ندية على فمه، وقالت له إنها أمضت النهار كله مع صديقتها لأن الجو في بيتها لا يطاق؛ وقالت له أيضاً إن أمها لا تكفّ عن البكاء، ولن تتوقف عن البكاء، وإخوتها منهارون، كما أنها لم تقوَ على الانتظار حتى تراه. وقد اتصلت بك في البيت عدة مرات، لكن أمّك قالت لي إنك نائم. لقد تحدّثت معي أمّك بطريقة سيئة للغاية. إنها لم تعد تحبّني - وأطلقت ضحكة عالية.

تساءل راميرو من أي شيء قُدَّت هذه الفتاة.

من الواضح، أنها لم تبك، ولا لثانية واحدة.

«آراسيلي، أظن أننا يجب أن نتكلّم، أليس كذلك؟»

نظرت في عينيه مباشرة، وجلست وضمت ساقيها تحتها. كان يقود السيارة، لكنه أدرك أنها تحدّق به. وفجأة أصبحت في غاية الجدّية.

«عمَّ سنتحدث؟»

«حسناً... عن كلّ شيء حدث. لقد حدثت أشياء كثيرة».

«لا يوجد لديّ ما أقوله عن هذا الأمر. لا أريد أن أتحدّث عن هذا الموضوع».

Arab_Books

«لم لا؟»

«لا أريد لأنني لا أريد»، وأشعلت مذياع السيارة، وحولت إبرة المذياع إلى محطة برازيلية انطلقت منها أغنية ماريا كريوزا. قطّب راميرو حاجبيه، لكنه لم يفه بأي كلمة. راح يقود سيارته صامتاً، واجتاز وسط المدينة. راحت تتحرّك في مقعدها على إيقاع الأغاني المنبعثة من المذياع.

«إلى أين تريدين أن آخذك؟»

«حيثما تشاء. لنغادر المدينة».

«إلى فونتانا؟»

«حيثما تريد»، ولم تتوقف عن تحريك جسدها، على أنغام أغنية لجوبيم آلان.

توجّه راميرو إلى تقاطع الطريق ١٦ وطريق بوينس آيرس أسنسيون السريع. اجتاز المطاعم، تلك المطاعم السيئة الإضاءة التي يتوقف عندها سائقو الشاحنات والتي تنبعث منها رائحة اللحم والأحشاء المشوية؛ وسرعان ما أصبحا على الطريق السريع. كانت الليلة صافية، يضيئها البدر اللاهب. وبسرعة طبيعية، أخذ راميرو الطريق إلى ماكالد؛ الذي سيتجه منه إلى بويرتو تيرول، ويصل إلى فونتانا بعد نصف ساعة.

بعد أن انعطفا، وغادرا الطريق ١٦، طلبت منه آراسيلي أن يتوقف. أحسّ راميرو بعضلات رقبته تتصلب.

«لا، لا ليس اليوم، يا حبيبتي».

لم يوقف السيارة. واصل القيادة بالسرعة نفسها.

Arab_Books

«إني أريد»، قالت بصوت فتاة صغيرة ضاعت في أحد المطارات، «أريد أن تفعلها لي الآن».

كان تنفّسها ثقيلاً أجش. قال راميرو لنفسه مستحيل، إنها فتاة نهمة. لا بد أنها فتاة شبقة، وقد أثرتها، مستحيل؛ إنها ستستنزفني حتى أذوي، ولا أريد أن يحدث ذلك. بدأ يتلعثم ويرتجف من شدّة إثارته عندما أحسّ بيدها تجوس فوق بنطاله.

«ليس اليوم، أقسم إني متعب»، وأبعد يدها محاولاً ألاّ يفقد سيطرته على السيارة، «فلم يغمض لي جفن منذ ليلتين».

«لقد نمت طوال اليوم»، قالت، وكأن شخصاً كسر دميتها الأثيرة لديها.

«حتى لو فعلت ذلك، فأنا متعب، يا آراسيلي، أرجوك صدقيني».

لبثا صامتين، وواصل القيادة، لكنّه كان يراقبها من طرف عينه، وبدا أنها زّمت شفتيها وتجهّم وجهها، كما لو كانت على وشك أن تبكي. كانت عيناها تلمعان.

وقال لها: «لا تكوني مجنونة وصدقيني، إني مرهق».

لكنه كان في الواقع، خائفاً. فهذه الفتاة الشابة شديدة التقلّب. أفزعه إدراك الورطة التي وقع فيها. إلى متى سيدوم هذا العذر بأنه لم يكن متواجداً في مكان الجريمة، ذلك العذر الذي قدمته هي نفسها هذا الصباح لتخرجه من السجن؟ إلى متى يمكنه تحمّل هذا الوضع، بجانب هذه الفتاة التي أثارته إلى حدّ جعله يفقد وعيه تماماً؟ وكيف يمكنه أن يسيطر عليها؟

تنهّدت آراسيلي، أو أنها تنحنحت؛ لم يكن متأكداً. ازداد

Arab_Books

تنفّسها حدّة، بحرارة، ومرة أخرى، أرخت يدها فوق ذكره، الذي استجاب على الفور وارتفع إلى الأعلى مثل سارية، كما لو كان ذلك خارج إرادته. ذعر راميرو. كان لاهباً مثل القمر الذي عاد يضيء الطريق. أرادها أن تبعد يدها، لكنها ألقت بنفسها عليه وراحت تقبّل رقبته، وتتأوه في أذنه، تملأها باللعاب. كاتو جديد يعلن: «يجب أن تتهدم قرطاج»، لكنه كان قرطاج، ولم يكن بإمكانه أن يوقفها، ونعم، يا للجحيم، إنه، في الحقيقة، سيتحطّم. كان عليه أن يتوقّف على جانب الطريق لأن السيارة بدأت تسير بشكل متعرّج، ولم يعد بإمكانه التحكّم بالمقود.

ركن السيارة على جانب الطريق، بالقرب من سياج أسلاك شائكة، وحاول الابتعاد عن آراسيلي، التي كانت لا تزال متعلقة برقبته. مدّت يدها، وأطفأت أضواء السيارة، وأطفأت المحرك، وبدأت تخرخر وتموء مثل قطّة تنزو:

«إفعلها لي، يا حبيبي، إفعلها لي»، وعلى نحو مسعور فتحت سحّاب بنطاله، وأحكمت قبضتها حول قضيبه، وفي الوقت نفسه، حرّكت يدها الأخرى ورفعت تنورتها الجينز. وفي ضوء القمر الشاحب المتسلل إلى السيارة، رأى راميرو ثانية الزغب اللامع على ساقيها البرونزيتين، والكيلوت الأبيض الصغير جداً الذي يغطي شعر عانتها الناعم كالريش. كان يعرف أنه لا يستطيع مقاومتها، وأنه أصبح لعبة في يدها. أطلق بعض الشتائم البذيئة عندما، عضت قضيبه من شدّة هياجها، فشدّها من شعرها ورفعها إلى الأعلى، وقرّبها من وجهه، وأمطرها بقبلاته. كان في حالة شديدة من الغضب والهياج، مدركاً للمرة الثانية الوحش الذي

Arab_Books

استحال إليه؛ وحرّك نفسه قليلاً على المقعد، واعتلى الفتاة، التي كانت تمتطيه، وبحركة واحدة، نزع كيلوتها، وولجها بعنف. في تلك اللحظة صاحت بمتعة ورغبة. راحا يهزّان ردفيهما بقوة، يعانق أحدهما الآخر، يهرس ويعضّ أحدهما الآخر على الكتفين ليزيدا بعضهما إثارة ولهيباً. راحت السيارة كلها تهتزّ. استمرّا كذلك حتى بلغا رعشة جماع مسعورة شبه حيوانية.

ولم تتوقّف السيارة عن الاهتزاز.

Arab_Books

٢٢

هدرت شاحنة محمّلة بجذوع الأشجار، وبدا أن الأرض قد اهتزت تحتهما. في تلك اللحظة أحس راميرو أن مشاعره بدأت تعود إليه. كانت آراسيلي قد اعتلته، وكانت شفتاها لا تزالان ملتصقتين برقبته، لكنهما توقفتا عن تقبيلها. كانت رائحة شعرها الكثيف تشبه رائحة شامبو الليمون. كان جسداهما ينضحان عرقاً، ومن فوق كتفيها، تمكّن من رؤية ردفيها وجزء من كيلوتها. كان يحدّق فيها، ثمّ أدرك الليل من وراء الزجاج الأمامي، بينما عاد تنفّسه إلى وضعه الطبيعي. ازداد إحساسه بالمرارة، أكثر مما كان في فترة بعد الظهر.

أراد أن يدخن سيجارة. حاول أن يبعدها عنه قليلاً ليبحث عن سجائره، التي كانت في منفضة السجائر. لكنه عندما فعل ذلك، تعلّقت به بشدة، وقالت: «لا، لا»، وعادت تلعق رقبته، وتحرّك ردفيها ببطء شديد، بطريقة شهوانية. كان لا يزال في داخلها. فعلى الرغم من أن قضيبه كان مسترخياً، لم يكن نائماً تماماً. تجهّم وتساءل ماذا يمكنه أن يفعل أكثر. لم يرغب في الاستمرار، أم أنه كان يرغب، لكن لعله لم يعد يستطيع، أو أنه كان يريد ويستطيع ذلك، لكنه في الوقت نفسه، لم يكن يريد.

Arab_Books

وكان الخوف مردّ ذلك. إن اللعب على الكلمات، في مرات كثيرة، يخفي الخوف.

ولكي يوقفها، قال ما كان يتوق إلى قوله ويخشى أن يقوله:

فقال بصوت خفيض جداً، يهمس في أذنها: «آراسيلي. إنك تظنين أنني أنا الذي قتلت والدك، صحيح؟»

«لا أريد أن أتكلّم»، همهمت ببطء بصوتها الطفولي، «أريد أن أواصل عمل ذلك، إني أحترق... امنحني المزيد...»

وراحت تتحرّك على نحو إيقاعي، تدفع ردفيها إلى كلا الجانبين، وتضيّق مهبلها، المبلّل تماماً، الذي كان ينبض بقوة حول قضيب راميرو. واصلت هجماتها المرتعشة، في هيجانها الذي رافقته تشنجات، مثل قشعريرة. أحسّ راميرو بقضيبه يستجيب ثانية. كان مرهقاً، ولم يفهم ما الذي تريده أكثر من ذلك. أحسّ بالفراغ، لكن قضيبه بدأ ينتعظ ثانية، مستجيباً لهذه الفتاة الملتهبة، الشهوانية.

«يجب أن نتحدّث»، قال، منزعجاً.

«خراء»، وثبت، رافعةً جذعها، لكن من دون أن تبعد ساقيها، وراحت تضربه على صدره بكلتا قبضتيها وهي لا تزال تمتطيه، «أعطني المزيد، أعطني المزيد».

أمسكها راميرو من رسغيها ودفعها جانباً. دفعها بكلّ قوته نحو المقعد الآخر، فارتطمت بالباب. لكنها تمسكّت بخلفية المقعد بيد، وبالمرآة الخلفية باليد الأخرى، ثم نهضت. كاد يراها لوهلة، بعينيها المتورمتين، وخيّل إليه أنه رأى نقطة دم صغيرة تسيل من فمها. وراحت تصارعه بصمت، لكنها راحت تلهث.

Arab_Books

كانت أقوى مما كان يتوقّع، ألقت بنفسها فوقه. مزّقت قميصه، وأمسكت بحلمته، وعضتها بقوة. شعر بألم حادّ، وفقد أعصابه، فضربها بقوة على مؤخرة رقبتها، فأفلتته. ثمّ أمسكها من رقبتها، وراح يضغط عليها ويعصرها.

ضغط عليها بكلّ جوارحه وقال لنفسه ثانية إنه مجنون، مجنون لأنه أوقع نفسه في الشرك، لأنه دمّر حياته، لأنه، بعد كل ذلك، استمر يقاتل، وراح يضغط بقوة أكبر لأنه كان يكرهها، لأنه لم يكن يستطيع أن يتوقف عن إتيانها في كلّ مرّة، لذلك، كان يعرف أنه بتلك الطريقة وضع حياته كلها في مهب الريح، ولأنه كان خائفاً، مذعوراً، ولم يعد هناك شيء يهمّه. وبينما كان يفكّر في ذلك وهو يخنقها، بدأ يبكي.

ورأى ضوء القمر، أو انعكاساته، يتسلل إلى داخل السيارة، ويستقرّ فوق بشرة آراسيلي، التي فتحت عينيها اليائستين، وأطبقت بيديها حول رسغيه، وراحت تخدشه، تغرز أظافرها فيه حتى سال دمه، لكنها لم تتمكن من إيقافه من الضغط عليها. راح يضغط ويضغط، ورأى وجهها الممتقع، وبدأت تصدر منه تشنجات، وبدأت تنبعث من صدرها أصوات خرخرة أخذت تخفت وتزداد عمقاً، حتى توقّفت فجأة، عندما توقّفت عن المقاومة.

أما راميرو، الذي راح يبكي متشنّجاً، لاهثاً برعب من شدّة العنف الذي بدر منه، لم يتوقّف عن الضغط على رقبتها. لن يعرف أبداً كم استمر في عمل ذلك، لكنه لم يتوقّف عن الضغط للحظة واحدة، حتى بعد أن همدت آراسيلي منذ فترة طويلة. فقد كُسرت رقبتها وتدلت إلى الجانب مثل قرنفلة تتدلى من جذع

Arab_Books

مكسور. وبعد فترة طويلة، متعرّقاً والحرارة لا تزال تغمره، والدموع تطفح من عينيه، بصمت تقريباً، لاحظ دوران القمر. ومن فوق جسد آراسيلي، ووجهها الممتلئ بالكدمات الذي كان يمسكه بين يديه، رأى أنه كان بدراً. وأخيراً، البدر، قمر شهر كانون الأول اللاهب، قمر إل تشاكو اللاهب، الهائج.

ومرة أخرى، تملّكه الخوف عندما أدرك أنه كان مستثاراً، وأن قضيبه قد تصلب، مثل قلبه، مثل قطعة من حجر الصوان.

ثم قذف، وهو ينظر إلى ذلك القمر المتوهّج الهائج.

Arab_Books

٢٣

ترجّل من السيارة بعد أن أطفأ المحرك. فتح الباب الخلفي حيث يقبع جسد آراسيلي. أمسكها من رسغيها وسحبها إلى قارعة الطريق. وضعها إلى جانب عمود مسيّج بأسلاك شائكة بالقرب من حقل مزروع بالقطن.

عاد إلى السيارة، وشغّلها، واستدار ليعود إلى ريسيستينسيا. قاد السيارة بسرعة وصلت إلى ١٠٠ كيلومتر في الساعة. عندما وصل إلى المدينة، كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً.

اتصل ببيته من هاتف عمومي وطلب من كريستينا أن تأتي لتأخذه - عند لا ليغوريا، قبالة الثكنة، حيث تعطلت سيارة الفيات، كما قال. كان ذلك على الجانب الآخر من ريسيستينسيا باتجاه كورينتيس. أشعل سيجارة، وانتظر بضع دقائق، مانعاً نفسه من التفكير، ثمّ شغّل السيارة وتوجه إلى البيت.

كانت الأضواء مطفأة. من غرفة نومها، سألته أمّه لتتأكد أنه هو. قال نعم، وقال لها إنها يجب ألاّ تقلق، وإن السيارة اشتغلت من تلقاء نفسها. ثمّ غسل الدم، وبدّل قميصه وبنطاله، وبحث عن جواز سفره، وطوى سترة كتّانية يحملها بيده وجمع كلّ البيزوات

Arab_Books

التي تمكّن من إيجادها بالإضافة إلى الخمسمائة دولار التي لم يحوّلها إلى بيزوات.

عاد إلى السيارة، وعندما شغلّها، وتساءل هل حدث كلّ ذلك فعلاً. استغرق بضع ثوان ليشغّل السيارة، وعندما فعل ذلك، أطلق سلسلة من اللعنات.

قبل أن يغادر المدينة، ملأ خزان السيارة بالبنزين، وفحص الهواء في العجلات، وانطلق إلى فورموسا بأقصى سرعة. هذه المرة سيصل إلى باراغوي قبل الفجر.

Arab_Books

الخاتمة

يصل الإنسان إلى خريف العمر، كما يصل
إلى أرض حرام:
فالموت لم يحن وقته، والحبّ فات أوانه.

– أليدو لويس ميلوني، كوبلاس دي بارو

٢٤

أغمض عينيه، وابتعد عن النافذة. لم يعد من المجدي الآن أن يواصل الهرب. إنه هارب بأرجل قصيرة. ففي أي لحظة سيأتون للبحث عنه، وكلّ ما يمكن أن يفعله خلال ذلك هو أن يفكّر. أن يفكّر ويتذكّر. لكي لا يشعر بالندم.

هل لديه سبب للندم؟ نعم، ندم، لأنه فقد أشياء كثيرة. لقد رهن حياته، وعليه أن يسدد ديونه. فمنذ أن بدأ دراسة القانون في باريس، كان يعرف ذلك. أوه، باريس، الجميلة والمتلألئة، ونهر السين الذي يتدفق بلطف وحياء شديدين، وهاتين الضفتين اللتين تحفّهما مراكب صغيرة، وصيّادون مثقفون في أفواههم غلايين. تنمية، رأسمالية متقدّمة، علم بيئة، نظافة، وبرودة لانهائية تعتري

Arab_Books

الناس. آه، باريس، بقبابها وأسطحها الملونة التي تحوّلت صورها إلى بطاقات بريدية. باريس - الشديدة الاختلاف عن هذه الشقة الصغيرة في المدينة التي يراها الآن من الطابق الثامن من فندق غواراني. هذه المدينة القذرة، المتخلّفة، التي لا تزال تصرّ على جمالها الكولونيالي، في ذلك الترامواي المتداعي، الذي استحال لونه إلى الأصفر والذي يسير في الشارع، ثم يختفي بين أحجار بيت، والذي ربما يعود إلى القرن الماضي.

وبدا النهر من مسافة بعيدة، وبدا أنه يشعر به أكثر مما يراه. نهر حقيقي، نهر الباراغواي، مثل نهر بارانا. يكاد يشبه بارانا. أنهار كبيرة وحقيقية، طويلة وعريضة، عميقة وقوية، قاتلة غالباً، تفيض كالغضب اللاهب فوق هذه الأراضي؛ يا للجحيم، فوق كل ذلك، لتتحول إلى كآبة في هذه المرحلة من اللعبة، عندما يتحوّل المرء إلى مجرم، طوال عمره. من يمكن أن يخطر بباله ذلك؟ لكن لماذا ينبغي له أن يفكّر أكثر. الحرارة هي السبب، تلك الحرارة التي ساهمت في إمكانية الموت، والتي تضفي تنوعاً في منح أشكالها. ويبدو أن الحرارة تسري في داخلك من دون أن تدرك ذلك. لكنّها تسبّب الموت، ذلك الشيء القديم الذي يتجدّد باستمرار مثل الأنهار الكبيرة. تلك اللعنة.

جلس على السرير وأخذ جرعة من الكولا التي أحضروها له، خفّفها الثلج الذي كاد يذوب كله. جعلت الحرارة الجو لا يطاق، كان مكيّف الهواء المعطل دلالة أخرى على التخلف. لكن هذا ليس بالأمر المهم. المهم هو الانتظار. بل إنه لم يعد يخشى شيئاً. رآها في المرآة قبالة السرير الذي أعاد انعكاس صورته بدون

Arab_Books

قميص، شبه عار وتلك الكتلة الكبيرة على رقبته التي تذكّره بعاطفة آراسيلي اللاهبة، التي عضّتها ومصّتها. كدمة بمثابة شهادة على ما حدث، ما فعل. لكنها شهادة عابرة، قال لنفسه، لأنها ستزول. فالعلامات تزول بعد بضعة أيام. لكن الشيء الآخر لا يزول، إنه الشيء الذي يبقى في الداخل. لا توجد وسيلة للتظاهر بالحزن العميق، لأن الحزن لا يترك كدمات.

أراد أن يموت في تلك اللحظة. تمنّى أن يأتي نوع من الكاتوبليباس(*)، مثل ذلك الوحش الخرافي الذي تحدّث عنه بورخيس، الكائن الذي يهلك أيّ رجل ينظر إلى عينيه. لشدّ ما أتمنى أن يأتي في هذه اللحظة وينظر إلى عينيّ، يمكنني أن أقول، «أهلاً بك يا كاتوبليباس»، وأنظر إلى عينيه. نعم، بالطبع سأنظر إليه. الآن، بالتأكيد.

فمن المؤكد أن ذلك سيكون أفضل من أن يقع في تلك الأيدي التي سيقع فيها. لأنه في أيّ لحظة، يمكن أن تصل سيارة شرطة باراغواية؛ وسيتعرّفون عليه، ويسلّمونه إلى زملائهم في الأرجنتين. تذكّر راميرو نظرة المفتش ألميرون الذي وعد بأن يرى أحدهما الآخر ثانية. نعم، من المؤكد أن ألميرون سيكون على الجانب الآخر من النهر، في كلورياندا، عندما يسلّمه الباراغوايون. تصرف شكلي بسيط يكون فيه هو التابع، السلعة.

لكن، لماذا بحق الجحيم يحتاجون إلى كل هذا الوقت؟ فقد انقضى يومان على ذلك. ماذا ينتظرون؟

(*) حيوان خرافي يشبه الثور له أربع قوائم ورأس ضخم ثقيل.

Arab_Books

لا، لا بد أنهم سيصلون في أيّ لحظة. يجب أن يقصر نفسه على التفكير والتذكّر والانتظار. إنه يستحقّ كلّ ذلك. يجب ألاّ تتلاعب بالموت أو بالوحشية. كان لا يزال مندهشاً، يتذكّر اندفاعه، الجنون الذي نجم عن الإثارة التي سببتها تلك الفتاة التي لن يذكر اسمها ثانية أبداً. . . لن يحدث ذلك مرة أخرى؟ خراء، لا، لن يحدث ذلك مرة أخرى مطلقاً.

فكّر أن ينزل إلى الطابق الأول، وأن يخرج ليتمشّى، ويأكل شيئاً. لكنه لم يجرؤ على عمل ذلك. فراح يذرع الغرفة. ثمة شيء يقول له إنه ربما استطاع أن يهرب، وإنه أحمق لأنه لم يحاول أن يهرب. لا، هذا غباء. أو ربما كان ذلك سيزيد الأمور تعقيداً. أكثر؟ سأل راميرو الذي رآه ينظر في المرآة. نعم، أكثر، بدا الآخر يجيبه.

«لا أفهم، حقاً. إني لا أفهم»، كرّر بصوت مرتفع، «سأجنّ. لماذا بحق الجحيم لا يأتون وينهون الأمر؟»

عاد إلى السرير، أشعل سيجارة أخرى، ومال إلى الوراء وراح يدخّنها. يريد أن يفهم، أن يفهم على الأقل، لماذا وكيف دمّرت حياته خلال ثلاث ليالٍ قائظة فقط، من الهواء المتّقد، اللاهب. يا للجحيم، لأنه عاد إلى إل تشاكو، صحيح؟ إن إل تشاكو أرض لاهبة، خانقة. مدارية، غابة، أناس متقدون مثلها - هي التي لم يعد لها اسم الآن - والحرارة والقمر. توليفة سيئة، قال لنفسه، وأخذ جرعة أخرى من الكولا، وفكّر في باولو وفرانسيسكا عن خطايا الجسد وإيذاء جارك. «لكني لم أعد جاراً: بل أصبحت الآن مجرماً، خارجاً عن القانون»، قال لنفسه،

Arab_Books

وافترض الدائرة الثانية، مع سميراميس، ومع ديدو ومع كليوباترا، ومع هيلين طروادة. وتذكّر التفسير الجميل لماركو دانيفي: باولو المدّعي الأحمق؛ فرانسيسكا تشبه دا ريميني كثيراً، بل شهواني عاطل عن العمل. وجيوفاني، الوحش في البرج، رجل مفعم بالحبّ والرقة. بطريقة مؤكدة، كان هو نفسه جيوفاني العاشق، لكنه عاشق للموت، لذلك كان يستحقّ أن ينتقل من الدائرة الثانية إلى الدائرة السابعة، المنطقة التي يحكمها مينوتور وجيريون.

لكن لماذا لم يأتوا يبحثون عنه؟ لا بدّ أن الأمر يتعلق بابن القحبة ألميرون. وفي غضون ذلك، كانت الدائرة السابعة لا تزال مغلقة. كان ذلك بعيداً جداً. درب طويل، لأنه لا يزال شاباً ويعيش في أرض حرام. باراغواي هي الأرض الحرام، وكذلك أسنسيون، وكذلك الفندق، وإل تشاكو والأرجنتين. أرض محايدة: فمن المبكّر جداً أن تموت، ومن المتأخر جداً أن تحبّ. كان هذا هو الحكم والعقاب الذي أنزل به.

ليس من المهم أن يعدموه بالصدمة الكهربائية. لن يكون الاستجواب طويلاً ولن تكون اللكمات التي سيتلقاها قليلة. حتى الفضيحة ليست عقاباً حقيقياً، القسوة الاجتماعية لبعض الأشخاص التافهين، الوضيعين، الذين سيلعنونه لفترة قليلة، ما زال الخبر المثير، حتى ينسى الجميع، الذين تصعقهم الحرارة، ويغيّرون الموضوع. سيجلب الخريف التحضيرات للمحاصيل الجديدة. ثمّ سيحين موعد حصاد القطن، الأمل المنبعث من أرضه. وسيظل العسكريون يمسكون بزمام السلطة، وسيظل أشخاص مثل غامبوا يتحكمون بكلّ شيء. كلّ هذا لا شيء: فالحكم الحقيقي هو ألاّ

Arab_Books

تغوص في بحيرات دم الدائرة السابعة: لا أن يعاني من سهام القنطور ذلك الكائن الخرافي كلما أراد الوقوف منتصباً. يجب أن يكون الحكم والعقاب شابين حيين غير قادرين على أن يموتا أو يحبّا في الأرض الحرام تلك.

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف، فوثب من السرير. جاؤوا أخيراً ليقبضوا عليه. رفع سماعة الهاتف. كان الشخص من مكتب الاستقبال.

«سيدي، توجد سيدة شابة تريد أن تراك».

أحكم راميرو قبضته على سماعة الهاتف، وحبس أنفاسه. نظر من النافذة، منكراً الأمر في رأسه. ثم نظر إلى الكتاب المقدس القابع على المنضدة الصغيرة، وفكّر في الرب، لكن لم يكن له رب. لا يوجد رب. لا توجد، آنذاك وإلى الأبد، سوى ذكرى القمر اللاهب في إل تشاكو، القابع في قطعة جلد، الجلد الأكثر إثارة الذي عرفه في حياته كلها.

«ماذا قلت؟»

«قلت إنه توجد سيدة شابة هنا تريد أن تراك يا سيدي. سيدة صغيرة يا سيدي».

Arab_Books

هذا الكتاب

كان يعرف أن ذلك سيحدث لا محالة؛ لقد عرف أن ذلك سيحدث ما إن وقعت عيناه عليها. فقد مضت سنوات عديدة لم يزر فيها إل تشاكو، وفي خضم كلّ المشاعر اللاهبة التي تثيرها تلك الزيارات، كانت آراسيلي فتاة رائعة، بشعرها الطويل، الأسود، الكثيف، وجدائلها المتغطرسة التي تؤطر وجهها الرقيق الناعم الموديلياني وبعينيها البراقتين، السوداوين البارزتين، غير المباليتين، لكن الماكرتين.

Tele: @Arab_Books